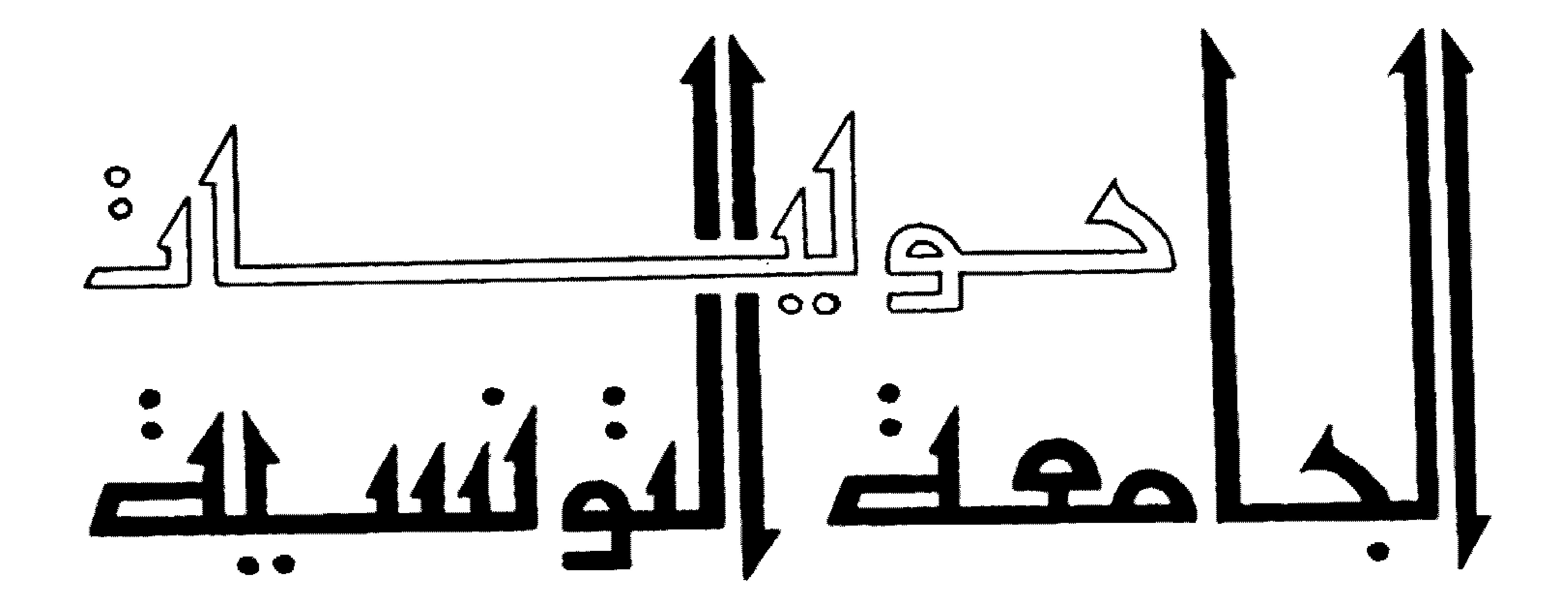


تونس

حـوليـات الجامعـة التـونسيـة

مجلة للبحث العلمى

تصدرها الجامعة التونسية

المـــديــــر : **احمد عبد السلام ، نائب رئيس الجامعة التونسية .**

- **الاشتراك السنوى :**

400 م او ما يعادلها : بتونس وشمال افريقيا وفرنسا .

500 م او ما يعادلها : بغير البلاد المذكورة .

- **ثمن العدد الواحد :**

400 م او ما يعادلها .

- **الاشتراكات توجه :**

الى الحســاب البــريــدى للجــامعــة التــونسيــة : تونس 11 ــ 610

مع التخصيص « حوليات الجامعة التونسية »

- **لا تلتزم المجلــة بما ينشــر فيها من آراء** ، ويتحمل كل كاتــب مسؤوليــة ما ينشره فيهــا .

- **المراسلات تكون بالعنوان التالى :**

حوليات الجامعة التونسية : الجامعة التونسية ، شارع 9 افريل 1938 ــ تـونس ــ

المطبعــة الرسمية للجمهوريــة التونسيــة

OK 1 . ٤ . 1964

الفهرس

الصفحة

نقد الكتب

تصدير

تبرز الجامعة التونسيّة هذه « الحوليات » بعد ان نظّمت أقسام تعليمها واعدت العدة ليكون البحث في جميعها مغذيا للتعليم ومتوجا له .

والجامعة تؤمل لهذه « الحوليات » ان تكون اداة تعبير واتصال فتعاضد التدريس في بث نتاج البحوث وتعين الباحثين بتمكينهم من مخاطبة الزميل البعيد ومحاورة مشاركهم في الاختصاص . وبذلك يكون نشاطهم مبسوطا لا مقصورا ومتفتحا للحوار لا خاملا مكبوتا .

و « حوليات » الجامعة التونسيّة — وان كانت معتمدة على نشاط المنتسبين الى كلياتها بالتدريس في فصولها او بالعمل في مخابرها — لا ترفض مشاركة غيرهم ممن سلك المنهاج الذي اخترناه واردنا لهذه النشرية ان تمتاز به عن غيرها من المجلات الثقافية التونسيّة . فانا نحب لها ان تفضل الرويّة على الرأي الفطير وعناء الدرس وكدّه على بريق الخاطر العابر .

ومن معاصرينا فئة ظنّت انها سلمت من معرّة التقليد إذا ما اجتنبت ذكر مالك والشافعي والاشعري والغزالي وغيرهم من ائمة المفكرين في ما سموه

« بالقرون الوسطى » وروت عن غث الكتب وسمينها مما ينشر في يومنا هذا غربا وشرقا . ومنهم قوم جاروا بعض كتّاب اروبا فابدوا الاحكام العامّة والباتة في شتّى احوال البشر ومختلف عصور التّاريخ دون ان يؤسسوا الحكم على ما يجب من الدرس والتأمل بلى عوّضوا ذلك بخلجات النفس ووساوس الهوى . فهؤلاء واولائك قد أخطؤوا السبيل فيما نعتقد .

وانّا نطمح الى ان يكون الحق وحده صلة بيننا وبين البشر جميعهم . وقد التزمنا ان لا نحاول الاقناع الا بعد الاقتناع . وسلكنا طريق الاختبار الجدّي للمعاني والاشياء نواجهها بالصبر ونقلّبها في أناة وعزم ونتهم حواسنا واهواءنا كما نتهم غيرنا ، وما اتهمنا الغير الالطول ما تاهت هذه الامة بالاستسلام « للنقل » . فبرد الايمان لا يذاق الا بعد جهد الطلب وبلاغة القول في موافقته الحق واجتنابه البهتان والزور . ولهذه الامة في اعناقنا امانة غاية آمالنا ان نؤديها غير مشبوبة بخون وهي ان نحفظ لها مقاييس الحقيقة عن الزيف وشتى ضروب التدليس .

وللقياس فتنة وللرّأي نشوة لا يسلم منهما الا من تذكر ان الغاية انما هي الحقيقة وان أساليب البحث انما هي وسائل يجب ان تواكب الفكر في تسلطه على شتى مظاهر الحقيقة بمرونة وفاعلية .

لذا نرجو ممن شاركنا في هذه المجلة ان تكون له امانة الصدّيقين وصبر المجتهدين وتواضع المريدين ونحب له ان لا يستشهد الا بما شهد وان لا يثبت الا ما خبره بالدرس الكافي والتجربة الشافية . وقد سمينا هذه المجلة « حوليات »

رمزا الى انّا نرغب في « الحـولي المحكـّـك » . ثمّ ان مـادة اشترطنـا فيها تلك الشروط قد تقل وتـكـثر على انا نعاهد القراء بان نوافيهـم بعدد من المجلـة على الاقل في كـل عام وقد يتيسر لنا اكـثر من ذلك والله وليّ التوفيق .

أحمد عبد السّلام

نائب رئيس الجامعة التونسية

حــول تاريخ وفــاة ابــراهيم الحصرى

بقلم : الشاذلى بويحيى

ترك ابـو اسحـاق ابراهيم الحصـري مؤلّفات تـدلّ قيمتهـا الادبيّة على صحّة مـا شهـد له به القدمـاء من التفوّق والزعـامة والاثر البعيـد في تيار الادب العربـيّ بافريقية زمن دولـة بني زيري من صنهاجـة وإن خمد صيتـه عند المتـأخـّرين

والحصري شاعر وأديب ومعلّم . فلم ينحصر إذن أثره في إشعاع عبقريّة الشاعر والاديب لإنارة السبيل في وجه الريّض المتمرّن من الشعراء والادباء الشبّان وحسب بل كان للحصري الاثر المبـاشر الفعّـال في اتّجـاه الشعر والادب في عصره إذ « كان شبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ورأس عنـدهم وشرف لديهم » حسب شهادة ابن رشيق .

وهذا الدور الخطير الذي كان له في تسيير الاتّجاه الادبيّ في عصـر ازدهار حضارة القيروان وتوجيهه حسب نزعاته الشخصيّة او المساهمة في هـذا التوجيه يجعل الاهتمام في دراسة الحصري وأدبه يتجاوز الحصري وأدبه ليتناول

الجيل الذي أخذ عن الحصري – مباشرة أو غير مباشرة – فتظهر بذلك ثمرة تعاليمه ومدى تأثيره .

وأوّل ما يجابه الباحث عندئذ سؤاله هذا : من هو الجيل الذي أخذ عن الحصري فتأثّر بنزعاته الادبيّة ؟

ولقائل أن يقول : ولكن هل لهذا التساؤل من موجب والمتعارف بين الناس أن ممّن أخذ عن الحصري جماعة ابن شرف وابن رشيق واترابهما وأنّ الحصري توفّي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (1022/413) ؟ .

ذلك رأينا . ويقيننا أنّ الحصري توفّي تلك السنة عندما كان جيل أدباء العصر الصنهاجي الثاني شبّانا وأطفالا . فهم الذين أخذوا عنه وتأثّروا بمذهبه فنما فيهم وازدهر معهم ووصل أوجه بترعرعهم وكان بتلفهم اندثاره في منتصف القرن الخامس عند خراب القيروان .

ذلك يقيننا . غير أن المصادر التي يعتمدها الباحث في دراسة حياة الحصري رغم قلّتها واحتوائها على الزاد القليل كأنّها لا تتّفق على هذا التاريخ فلا تخلو إذن من إثارة بعض الاضطراب – في نفوس الناشئة خاصّة :

فمن المراجع القريبة لديهم كتابان : « المنتخب المدرسي من الادب التونسي » للأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب وبه ذكر وفاة الحصري في سنة 413 وكتاب « عنوان الاريب عمّا نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب » للشيخ محمد النيفر وفيه أن الحصري توفي سنة 453 اي أربع سنوات بعد أفول نجم القيروان وتشتّت القوم في الآفاق وانهيار صرح حضارة القيروان وانتهاء الفترة التي نسمّيها بالعصر الصنهاجيّ الثاني .

وعندها يتبيّن أهميّة تساؤلنا عن الجيل الذي تأثّر بالحصري في إنتاجه الادبيّ من هو بل وجوب هذا التساؤل إذ لا سبيل الى الانكباب على دراسة ما علمنا للحصري من أثر لمعرفة فحواه ومداه ما لم نعلم علم اليقين من هم القوم الذين ظهر هذا الاثر في تآليفهم فكان قريب التناول هيّن الفحص ثابت المعالم في أدب تلاميذه ومن تلاهم .

ثم لم نكن لنعنى بالامر خاصّة ونعير له مثل هذا الاهتمام لو انفرد كتاب « عنوان الاريب » بالخبر الثاني . فمن المعروف ان الشيخ محمد النيفر — رحمه الله — لم يكن كثير التحرّي في ما يثبته فقد يقتصر على المصدر الواحد ولا يكلّف نفسه مؤونة النقد بل ولا التفكير . ولم نكن كذلك لنعنى به هذه العناية وقد تناول المسألة شيخنا المحقّق الاستاذ ح.ح. عبد الوهّاب في مجلّة « البدر » (جمادى الاولى سنة 1340 المجلّد الثاني ص 310) فأثبت الخبر الاوّل وناقش الثاني وردّه عن ابن خلّكان .

وإنّما عرضنا الى المسألة هنا رغم هذا وذاك أوّلا لتواتر الخبر عن وفاة الحصري سنة ثلاث وخمسين خاصّة في المطبوعات المتأخّرة . ثانيا لانّ ردّ الاستاذ ح.ح. عبد الوهّاب لا يتعرّض الى جميع هذه المصادر بالذكر والتحليل إذ جاء في صورة تعليق عارض أسفل النصّ .

نلاحظ أوّل ما نلاحظ عند الاطلاع على مصادر البحث في حياة الحصري أنّها جميعا — ما عدا حاجي خليفة ومحمد النيفر — تذكر سنة 413 يقتصر على ذكرها دون سواها ياقوت (1) والمستشرق بروكلمان Brockelmann (2)

---

(1) معجم الادباء ج 2 ص 94 (ط . دار المأمون — مصر) مع تعليق للناشر يذكر فيه سنة 453 عن الصفدى .

(2) G. I ص 267 وبه : « بعد سنة 413 » مع اضطراب فى الفصل لذكره تاليف زهر الآداب فى سنة 450 بدون نقد . وسيأتى الحديث عن هذا .

وح.ح. عبد الوهاب بينما يزيد عليها الصفدي في كتاب « الوافي بالوفيات »(3) سنة 453 نقلا عن ابن خلكان .

والذي لا شكّ فيه انّ ابن خلكان (4) يقول بالسنة الاولى . فهي التي أثبتها في سياق ترجمته للحصري في عبارة الجزم الصريح إذ يقول : « توفّي ابو اسحاق المذكور بالقيروان سنة 413 » ويقينه يظهر في الجملة التالية لهذه وهي : « وقال ابن بسّام في الذخيرة : بلغني انه توفّي سنة 453 والاوّل اصحّ . رحمه الله » . وعبارة ابن بسّام ذاتها (بلغني...) لا تفيد اليقين حسب شروط الرواية والإسناد . غير أنّ نصّ « الوفيات » لا ينتهي بهذا بل يأتي بعد الجملتين السابقتين ما نصّه : « وذكر القاضي الرّشيد بن الزبير في كتاب الجنان في الجزء الاوّل في ترجمة ابي الحسن علي بن عبد العزيز المعروف بالفكيك انّ الحصري المذكور ألّف كتاب زهر الآداب في سنة 450 وهذا يدلّ على صحّة ما قاله ابن بسّام والله أعلم » . وهي عبارة قد يفهم منها ان ابن خلكان يرجّح في نهاية الامر سنة 453 على سنة 413 وهو ما ذهب اليه الصفدي واقتصر عليه محمد النيفر وحاجي خليفة من قبله .

لكنّنا نشكّ في نسبة هذه العبارة لابن خلكان . فبعد أن جزم بأن أبا اسحاق توفّي سنة 413 في الجملة الاولى وأكّد هذه النظرية في الجملة الثانية بقوله « والاوّل أصحّ » وأنهى الحديث عن الحصري بقوله « رحمه الله » كيف يقبل منه التناقض والاضطراب بزيادة هذه العبارة : « وهذا يدلّ على صحّة ما قاله ابن بسّام » ؟ ثمّ إنّ العبارة غريبة في هيئتها لا يطمئنّ الناقد إلى انها من

(3) مخطوطة جامع الزيتونة بتونس عدد 4844 ج 5 ص 68 — 69 .
(4) ج 1 ص 113 — 116 (ط . دار المأمون . مصر سنة 1936) .

كلام ابن خلكان إذا ما انتبه الى محلّها من الترجمة (بعد الانتهاء من هذه الترجمة بالترحّم على المترجم له) وإلى أسلوبها وهو أسلوب من أراد الزيادة والاحتجاج فألحّ في الاستدلال واستعمال عبارات الاستدلال في قوله : « في كتاب... في الجزء الاوّل في ترجمة... وهذا يدلّ على صحّة... » .

وقد شكّ في نسبة هذه الجملة لابن خلّكان منذ القرن الفارط ناشر « الوفيات » باللّغة الانكليزيّة (5) وحجّته — وهي بالغة حاسمة — أن العبارة لا توجد في جميع المخطوطات . فلا ريب إذن في أنّها زيادة على نصّ ابن خلّكان .

أمّا ما روي في كتاب الجنان من تاريخ تأليف زهر الآداب فلا يبعد أن يكون غلطا ناشئا عن نقل سيّء أو سماع رديء وقد يكون التاريخ سنة 405 لا سنة 450 وما أقرب « سنة خمس » من « سنة خمسين » في النطق وفي الخطّ ! وأمثال هذه الاغلاط كثيرة يألفها من يمارس المخطوطات العربية .

وفي سنة 450 كانت القيروان خرابا يبابا فلم يكن بها أدباء ولم يكن بها تأليف ولم يكن بها للاداب زهر .

فلم يبق بعد هذا ما يثبت سنة 453 سوى ما رواه ابن بسّام وقد تبيّن لنا ضعفه ولصاحبه أيضا .

أمّا سنة 413 فحججها متينة لا سبيل للشكّ بعدها :

يذكرها جميع من ترجم للحصري من القدماء نقلا عن كتاب

(5) ط . باريس ولندن سنة 1843 ج 1 ص 35 . تعليق عدد 4 . وعن كتاب « الوفيات » أخذ حاجي خليفة وغيره .

« الانموذج » لابن رشيق . ولا شكّ لمن طالع « الذخيرة » و « معجم الادباء » و « وفيات الاعيان » و « الوافي بالوفيات » انّ ابن بسّام وياقوت وابن خلّكان والصفدي كانوا يملكون « الانموذج » . أمّا ياقوت فقد كان بين يديه نسخة منه بخطّ ابن رشيق إذ يقول في « معجم البلدان » (6) في ضبط كلمة رُصْفة : « كذا ضبطه من خطّ حسن بن رشيق في الانموذج » وفي كلمة صدف : « قال الحسن بن رشيق القيرواني ومن خطّ يده نقلته » (6) .

وشهادة ابن رشيق لا سبيل للطعن فيها لانه معاصر الحصري وتلميذه وقد نصّ في ترجمته أنّه مات فلم يكن ذلك الا قبل تأليف الانموذج وكان ذلك حوالي سنة 420 . يقول ابن رشيق : « مات بالمنصورية من أرض القيروان سنة 413 وقد جاوز الاشدّ » . ويفيدنا ابن رشيق أنه كان أصغر شعراء القيروان سنّا قبيل وفاة الحصري في قوله (7) : « وقد كان أخذ في عمل طبقات الشعراء على رتب الاسنان وكنت أصْغر القوم سنا... » ثم يقول ابن رشيق : « ... ومات وقد سُدّ عليه باب الفكرة ولم يصنع شيئا » يعني عمل طبقات شعراء القيروان . وابن رشيق لم يكن أصغر القوم في سنة 453 إذ جاوز عمره إذّاك الستّين .

وممّن سمع من الحصري من أدباء القيروان ابو طاهر التجيبي صاحب كتاب « المختار من شعر بشّار... » وهو يكرّر في كتابه عبارات « أنشدني [ابراهيم الحصري] لنفسه » و « رحمه الله » ممّا يدلّ على وفاة الحصري قبل سنة 450 وهي سنة وفاة التجيبي .

---

(6) ج 3 ص 50 و ج . 3 ص 397 من ط . بيروت 1376/1957 .

(7) المصدر المذكور أعلاه من معجم الادباء .

فلا سبيل إذن إلى الاخذ بسنة 453 كتاريخ لوفاة الحصري ولا الى الشكّ في أنّه مات سنة 413 فهو حينئذ من أدباء العصر الصنهاجي الاوّل فشارك مع أترابه الاعلام أمثال القزّاز والنهشلي وغيرهما في تمهيد السبيل الى ازدهار عصر المعزّ بن باديس وهو عصر القيروان الذهبي .

وممّن اشتهر بالعلم والادب والشعر المتين الرقيق في هذا العصر الصنهاجي الثاني علي الحصري الكفيف المتوفّي سنة 1095/488 بعد هجرته الى الاندلس والمغرب إثر خراب القيروان . وقد اختلف من ترجم لهما في النسب بينهما فمن قائل إن عليّا ابن خالة ابراهيم ومن قائل إنه ابن أخته .

وليس للأمر من الاهمّيّة ما يوجب بحثا كالذي أوجبه تاريخ وفاة ابراهيم . فلنكتف بالإشارة الى أنّ ما أثبتناه من تاريخ وفاة ابراهيم الحصري يجعل الرجلين في جيلين متباينين فالرّاجح أن عليّ الحصري ابن أخت ابراهيم لا ابن خالته .

ثم لعلّ هذا البحث قد أثمر فائدة أدبيّة ذات بال إذا صحّ ما ذهبنا إليه في تأويل قول الرشيد بن الزبير من تاريخ تأليف زهر الآداب في سنة 405 وهي إذن سنة بداية إنتاجه الادبيّ لانه ثبت لدينا ان مؤلفاته الاخرى تالية « للكتاب الكبير » على حدّ تعبيره في نعت زهر الآداب .

وهذه التحقيقات — على حقارتها — تفيد دراسة الحصري والادب الصنهاجي إذ أنها توضّح القليل الذي بقي لدينا عن حياة الحصري وشخصه أوّلا وتبيّن بعض العوامل والاسباب في نموّ الادب في عصر اكتماله بالقيروان ثانيا .

فلعلّ من أهمّ ما كان من دور الحصري في تثقيف ناشئة القيروان في مستهلّ القرن الخامس الهجري أنه نشر بين تلامذته نصوص الادباء الاعلام من مشاهير الشرق في القرن الرابع الراحل وفجر الخامس وبثّ في أنفسهم حبّ أدب المحدثين بينما كانت الثقافة في العالم العربيّ كلّه تعتمد القديم وتفضّله على الجديد . ولِع الحصري بأدب الهمذاني أيّما وَلوع وأثبت من رسائله ومقاماته في منتخباته كثيرا . فقد يكون بذلك دخول « المقامة » الى افريقية واشتغال أدباء القيروان بهذا الفنّ الوليد .

فـ « مسائل الانتقاد » لابن شرف القيرواني (8) — او بالاحرى ما بقي من هذا الكتاب — إنّما هي اثنتان من عدّة مقامات (9) ألّفها ابن شرف . وهو أوّل إنتاج إفريقيّ في فنّ المقامة (10) وأثر بيّن لتعليم الحصري في اتّجاه الادب عند شبّان القيروان .

(8) نشرها ح. ح. عبد الوهاب بعنوان « رسائل الانتقاد » ضمن « رسائل البلغاء » . مصر سنة 1913 ثم أعاد نشرها ش بيلا Ch. Pellat بعنوان « مسائل الانتقاد » الجزائر سنة 1953 .

(9) يقول ابن بسام في الذخيرة 1/4 ص 154 : « ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه وصب فيها على قالبه ... » على أن الاستاذ بلاشير R Blachère لم يذكر ابن شرف من بين أصحاب المقامات في بحثه عن الهمذاني وفن المقامة :
Al-Hamadani. Choix de Maqamat (séances), Paris 1957
انظر خاصة من ص 123 الى ص 129 .

(10) ولعل هذا الفن قد ألف فيه أيضا عبد العزيز الطارفي أحد شعراء « الانموذج » وهو اذن من أدباء العصر الصنهاجي الثاني أي ممن تأثر بتعاليم الحصري . قال ابن رشيق : « وأكثر اشتهاره بالنثر دون النظم اذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان ما بين تزويق مقامة مبتدعة او خطبة ... » نقله ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار (خ باريس عدد 2327) XVII ص 88 والصفدي في الوافي بالوفيات (خ . تونس عدد 4849) XVII 56 — 57 .

وما كنّا لنصل الى هذا الاستنتاج لو لم يتّضح لدينا أمر تاريـخ وفـاة الحصري إذ ان « مسائل الانتقاد » ألّفها صاحبُها بالقيروان قبل هجرته منهـا عنـد زحف بني حـلال اي قبل سنة 453 المـذكـورة بسنيـن عـدّة . فتعليـم الحصري لم يكـن ليثمر فيؤتي أكله هذا الرائع البهيـج لو لم يكـن قد سبق بكـثير ظهور هذا النتاج فتيسّر إذّاك النضج والاكـتمال في فرع يانع زاك من غـرس كـريـم .

وإذا تجلّى لدينا بهذا مدى أثر الحصري في الادب بافريقية فالتحقيق في تاريـخ وفاته يبدو لنا ذا شأن خطير إذا ما خرجنا بالبحث والنظر من نطـاق إفريقية الضيّق الى أقطار عربيّة أخرى . ونريد أن نقصر البحث هنا على نقطة وجيزة لا نتجاوزها نقتصر بها — دون ما تعمّق — على الإشارة الى ما يبدو لنـا كـشفا هامّا في تاريـخ الادب العربـي .

ذلك أنّنا بتتبّع آثار ابراهيم الحصري في مظانّها عثرنا على تأليف لـه غريب هو كـتاب « المصون في سرّ الهوى المكـنون » (11) . وهو في قـالبه الطريف كـحديث بين متحاورين دراسة تحليليّـة لعاطفـة الحبّ في مظاهرهـا وظهورها عند العشّاق لا سيّما عند من أراد كـتمها ومن تغافل عنها ومن أبـى الاعتراف بها فبدت في سلوكـهم من حيث يشعرون ولا يشعرون .

والوقوف على هذا الـكـتاب وقراءته وتحليله لا يغيّر النظريّة التقليديّة حول منتوجات الحصري فحسب فيجعلها تتجاوز نطاق الادب المحظ بل وصل بنـا الاطلاع على هذا الـكـتاب الى رأي آخر لا تخفى أهمّيّته على علماء العربيّة

(11) اطلعنا على نسخة خطية منه بمكتبة ليدن محفوظة تحت عدد 2593 OR

إذا أثبته بحث مدقّق نرجوه قريبا . وهو انّ كتاب الحصري هذا يمكن اعتباره أصلا من الاصول المظنونه لتاليف ابن حزم الاندلسي المسمّى « طوق الحمامة في الالفة والالاّف » .

فالشبه متين بين الكتابين . وإشعاع إفريقية الادبي والعلمي على الاندلس كبير غير مجحود وتفوّق الافارقة وعطفهم على علماء الاندلس وأدبائها مشهور . والتجاوب بين القطرين وتتبّع أهل القطر لما ينشأ وما لا ينشأ — خاصّة (12) — في القطر الآخر معروف . فلا يبعد إذن بل يقين — إلاّ إذا ما أثبت النقد الداخلي عكس ذلك — ان ابن حزم المتوفّى سنة 456 (13) عرف كتاب « المصون » للحصري كما عرف رسالة الجاحظ في العشق والنساء (14) والموشّى لوشّاء ورسائل إخوان الصفاء وتأثّر به كما تأثّر بتلك الاخرى .

ولا يكون ذلك ولا يكون وجود التأثّر في هذا الحدث الادبي الخطير إلا إذا ما ثبت يقينا ان أبا اسحاق ابراهيم ابن علي الحصري توفّي سنة 413 وهو ما أردنا كشف الظنون عنه .

ش. بو يحي

(12) انظر مثلا رسالة ابن الربيب القيروانى الى عبد الوهاب بن حزم الوزير الاندلسى وردا — مؤخرا — عليها لابى محمد على بن حزم صاحب « طوق الحمامة » فى كتاب الذخيرة لابن بسام 4/1 ص 111 وما بعدها .

(13) والمشهور ان ابن حزم ألف « طوق الحمامة » حوالى سنة 417 . فالاخذ بسنة 453 كتاريخ وفاة الحصرى قد يعكس مجرى التأثر فيجعل كتاب « طوق الحمامة » أصلا من أصول كتاب الحصرى .

(14) وهى رسالتان لا رسالة واحدة حسب تحقيق الاستاذ ش . بيلا Ch. Pellat (فى مجلة ARABICA III فى سنة 1956 ص 147 وما بعدها . انظر عددى 84 و 146 فى ذلك المقال) .

كتـــاب النمـــر والثعلب

لسهل بن هـــارون

بقلم : عبد القادر المهيرى

يعتبر سهل بن هارون(1) من اهم ادباء القرن الثانـي الهجري ومن اهم الكتاب الذين ساعدت مؤلفاتهم على تطوير النثر العربي فالجاحظ يعده «من الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والاخبار المدونة » (2) ولم يتردد في ان ينسب اليه اولى مؤلفاته ليسلم من طعن المنافسين والحساد (3) ويضعه ابن النديم في صف أيمة البلغاء من امثال عبد الحميد الكاتب وغيره (4) . اما في عصرنا هذا فيعتبر سهل بن هارون اول ممثل لفن الادب الذي يرمي الى ضبط ما يجب ان يخضع له الملوك والامراء والاشراف من قواعد في سلوكهم والى عرض المبادىء الاخلاقية بطريقة القصص والنوادر (5) .

(1) انظر ترجمته في الفهرست ص 174 (القاهرة) ياقوت : ارشاد 11 ص 266 وما بعدها (القاهرة) ـ ابن بدرون : شرح رسالة ابن زيدون ص 152 (القاهرة) ـ دائرة المعارف الاسلامية ج 4 ص 64 (الطبعة الفرنسية الاولى)

(2) البيان والتبيين ج 1 ص 68 (القاهرة 1947)

(3) المسعودى : التنبيه والاشراف ص 66 (بغداد 1938)

(4) الفهرست ص 174

(5) شارل بلا : مجلة (Arabica) عدد خاص ببغداد سنة 1962 ص 408

وتنسب كـتب التراجم الى سهل بن هارون عددا من المؤلفات كـكـتاب « ديوان الرسائل » وكـتاب « تدبير الملك والسيـاسة » وكـتـاب « ثعلة وعفـرة » وكـتاب « النمر والثعلب » (6) . الا ان اهل البحث يعتبرون ان كـل هـذه الكـتب قد ضاعت (7) وهـكـذا فلا نعرف سهل بن هارون الا من خلال رأي القدماء فيه وبعض ما احتفظت لنا به كـتب الادب من اقواله النثرية والشعرية(8) ولئن اورد الجاحظ في كـتاب البخلاء رسالة منسوبة اليه (9) فانه لا يمكـن الجزم بصحة نسبتها ولا يمكـن — ان تسنى ذلك — ان نعرف مدى تصرف الجاحـظ فيها ومدى تمثيلها لنثر سهل بن هارون .

وقد اكـتشفنا اخيرا في مكـتبة المخطوطات بالجامعة التونسية كـتابا عنوانه « النمر والثعلب » نسب الى سهل بن هارون وهو يتكـون من احدى وعشرين ورقة توجد في مجموع يتضمن كـتابين آخرين (10) وتحتوي كـل صفحة على واحـد وعشرين سطـرا كـتبت بخط تونسـي وليس في المخطـوط ما يـدل على تاريـخ نسخه ولا على الاصل الذي نقل منه ولا على شخصية ناسخه ويظهر ان

(6) الفهرست ص 174 ـ البيان والتبيين I ، 68

(7) محمد كرد علي : امـراء البيان ج 1 ص 167 ، ش. بـلا : المقـال المـذكور من مجلـة (Arabica)

(8) البيـان والتبيين ج 1 ص 103 ، 204 ، 241 ، 330 — ج 2 ص 69 ، 103 ، 198 — ج 3 ص 288 ، 304
الحيـــوان ج 3 ص 66 ، 466 — ج 5 ص 604 — ج 6 ص 431 — ج 7 ص 132 ، 202
ابـن قتيبـة عيـون الاخبـــار : ج 3 ص 25 ،138 — ج 4 ص 112 — العقد الفريد ج 2 ص 123 ...

(9) كتاب البخلاء من ص 9 الى ص 16 (ط الحاجرى 1958)

(10) عـدد المجموع : R 288 والكتابـان همـا كتاب السلوانات فى مختـار الاداب ونوادر اهل الالباب تاليف الفقيه ابى محمد عبد اللـه بن ابى محمد بن ابى محمـد بن ظفـر وكتاب الـدر النظيم فيما ورد فى مصـر واعمالها تاليف ابى عبد الله محمد على المجذوب الاسرودى

هذا ممـن كانوا يحترفون نسخ الـكـتب بدون ان يـكـونوا قد تضلعوا في معـرفـة العربية ولا في قواعد رسمها تضلعا كافيا فاخطاء الرسم عديدة (11) وهو كـثيرا ما يرسم الـكـلمات بدون ان يحاول تفهمها ممـا يجعل ضبطها عسيرا خـاصّة وان امـكـانيات المقـارنة منعدمة .

ولا يمكـن للانسان الا يتساءل عن صحة نسبـة هذا الـكـتـاب ولا تخفى الصعوبات التـي تعترضنا في سبيل البحث عن الجواب المقنع فالمخطوط مجرد من كـل الاشارات التـي تجعلنا نطمئن اليه ونثق به بدون مزيد من التمحيص وليس في وسعنا ان نقارنه بنسخة اخرى تقضـي على كـل اسباب الشك والاحتراز ولا يمكـننا كـذلك ان ننظر في النص الذي بين ايدينا نظرة المتشبـع بادب سهل بن هارون والناقد الذي يستطيـع ان يبدي رأيه في صحة الاثر او انتحاله بفضل ما اوتـي من خبرة اذ اننا لا نـكـاد نعرف شيئا عن هذا الادب .

الا انه ممـا لا شك فيه ان سهل بن هارون ترك كـتابا عنوانه النمر والثعلب وقد ذكـره ابن النديم في الفهرست (12) وياقوت في ارشاد الاريب (13) بجانب كـتاب آخر عنوانه ثعلة وعفرة يظهر ان الـكـاتب توخى فيه طريقة كـليلة ودمنة ثم اننـا نجـد في كـتب الادب اقـوالا منسوبـة الى سهـل بن هارون نجدهـا بحذافيرها في المخطوط الذي بين ايدينا (14) فمن العسير اذن ان يـكـون السياق الذي وردت فيه هذه الاقوال منتحلا .

---

(11) انظر البعض منها فى التعليقات على ما ننشره من مقتطفات اثر هذا التقديم

(12) ص 174

(13) ج 11 ص 266

(14) كتاب الصناعتين ص 310 — ونجد فى كتاب امراء البيان لكـرد على فقرة حول السلطان نجدها بحذافيرها فى كتاب النمر والثعلب ولم نتوصل الى معرفة الاصل الذى نقل عنه كرد على (انظر امراء البيان ج 1 ص 179 ابتداء من السطر 16)

ولعل اطمئناننا الى هذا المخطوط يتضاعف عندما ننظر في النص محاوليـن ضبط موضوعه وبيان المنهج المتوخى فيه والنزعة التـي تسوده .

فالكـتاب عبارة عن قصّة شبيهة بقصص كـليلة ودمنة وموضوعها ان ثعلبا كان مقيما بواد فحملـه السيل والقـى به على ساحل جزيـرة تعيش بها الوحـوش خاضعة لنمر عرف ببطشه وشراسته واخذ الثعلب يتجول مترددا خائفا فاعترضه ذئب اطلعه على ظروف الحياة في الجزيرة وضنك العيش بها من جراء استبـداد النمر ولكـن الثعلب لم يوافق الذئب على الاستكـانة والرضى بتلك الحالة فنصحه بان يطلب من الملك تكـليفه بولاية يدير شؤونها على ان يتنازل له عن نصف مداخيلها فعمل الذئب بتلك النصيحـة ولقـي من النمـر اذنا صاغيـة فعين على بعض نواحـي الجزيرة الا انه لم يلبث ان نسـي وعده فأخذ يتصرف في مقاطعته تصرف السيد المطلق واستأثر بخيراتها فلما طال الامر ذكـره النمر في رسائـل عديدة بما اتفقا عليه وعاتبه وهدده بالتنكـيل به واجاب الذئب عن الرسائـل الاولى جواب المعتذر لاوامر الملك الا انه سرعان ما تغيرت لهجته فاصبحت تدل على الاستخفاف والتمرد فعزم النمر على محاربته ونشبت بينهما معارك لم ينهـزم الوالي الا في ثالثتها فلقـي حتفه وكاد الثعلب يقتل مثله لولا ذكاؤه وسداد تفـكيره ذلك ان النمر وعده بان يستبقيـه ان تمكن من الاجابـة عما يلقى عليه من اسئلة اجوبة مرضية واختبر الثعلب فكـان حاضر البديهة تدل اجوبتة على سعة الاطلاع وحسن التفـكـير وبلاغة العبارة وقد خصص لهـذا الاختبـار ما يقـرب من ثلث الكـتاب وكان موضوعه العقل ومكـانته في العلم وتأثيره في السلوك والخير والشـر وعلاقتهما بالعقل وبصفة عامّة الشّيم الاخلاقية وتعريفها وبيان درجاتها .

ولا يمكـن للقارىء الا يلاحظ ما بين الطريقة المتوخاة في هذه القصّة وبين منهج كـليلة ودمنة من تشابه . ومن الجدير بالذكـر ان من ترجموا لسهـل بن هارون قد سجلوا ميله الى تقليـد ابن المقفـع واشاروا الى انـه حاكـاه في بعض مؤلفاته (15) فأبطال كـتاب النمر والثعلب حيوانات يمثل كـل منها صنفا من الاصناف البشرية فالنمر مثال القوة والاستبداد والثعلب رمز الذكاء وسداد الرأيّ والذئب عنوان الانانية والجحود . اما حوادث القصّة فانها تتسلسل تسلسلا بسيطا يبلغ حد السذاجة احيانا وتشعر من خلالهـا انها ترمـي الى اثبات غلبـة العقـل وتفوق الفضيلة وللحوار دور اساسـي هنا كما هو الشأن في كـتاب كـليلة ودمنة وهو يهدف الى جعل النظريات تتواجه وتتقابل حتى يظهر السديد منها وينتصر وتدور هذه الآراء حول السلطان وسلوك اولي الامر وعلاقتهم بالرعية كما تـدور حول الوسائل الكـفيلة بضمان السلامة للانسان والسلوك الذي يجدر بالعاقل ان يسلكـه في حياته وكـثيرا ما تتخلل القصة فقرات طويلة لتحليل مختلف النظريات والدفاع عنها وتدعيمها بالامثال والحكم ويمكـن ان نلاحظ ان سلوك الحكـيم كما يحدده كـتاب النمر والثعلب لا يختلف عن سلوكـه حسب كـتاب كـليلة ودمنة فهو قائم على العقل والفضيلـة بعيـد عن كـل تطـرف يرمـي الى سلامـة الانسان في الدنيا والآخرة وكـثيرا ما يقتبس الكـاتب اقوالا بحذافيرها من كـتاب كـليلة ودمنة بدون ان ينسبها الى صاحبها (16) ولا شك ان هذا الشبه بين قصة النمر والثعلب وكـتاب كـليلة ودمنة من العوامل التـي تجعل شكـنا في نسبتهـا الى سهل بن هارون يتضاءل ويفتر .

---

(15) الفهرست ص 174

(16) انظر التعليقات على المقتطفات المنشورة اثـر هذا

ولكـن كـتاب النمر والثعلب ليس مجرد محاكاة لقصص كـليلة ودمنـة فله من الطرافة ما يجعله جديرا بالعناية كما انه يمتاز عن مؤلفات ابن المقفـع بخصائص تنم عن شخصية صاحبه وربما تعين على معرفته .

واول ما يسترعـي الانتباه في هذه القصّة شخصية الذئب الذي يمثل واليـا عينه الملك على بعض المقاطعات فاستبد بالامر وخرج عن الطاعة ومن العسير الا نفـكـر في المكـانة التـي اخذ الولاة يحتلونها ابتداء من خلافة هارون الرشيد وفي ميل عدد منهـم الى الاستقـلال عن السلطـة المركـزية واضطـرار الخلافـة الى الاستجابة الى رغباتهم او على الاقل مجاراتهم (17) وقد يذكـرنا موقف الثعلـب ونجاته بعد قتل الذئب بموقف سهل بن هارون نفسه الذي كان متصلا بالبرامكـة ثم انه لم ينكـب مثلهم اذ قربه الرشيـد لما عرف به من بلاغـة وخبـرة بشؤون الادارة (18) .

ومن الخصائص التـي يمتاز بها كـتاب النمر والثعلب اشتماله على نص الرسائل التـي تبادلها الملك والوالي وقد ادمجت هذه الرسائل في صلب القصّـة فـكـانت لها اهمية في تساسل الحـوادث وكـانت بمثـابة المحـرك الذي يدفـع الاشخاص الى ضبط ما ينبغـي ان يتوخوه من مواقف وان يقوموا به من اعمـال وهنا ايضا لا بد من التذكـير بان سهل بن هارون كان من كـتاب الرسائـل المعروفين ببراعتهم في هذا الفن .

(17) ينبغى ان نشير هنا الى ابراهيم بن الاغلب فى عهد الرشيد والطاهريين فى عهد المامون وبعده

(18) العقد الفريد ج 5 ص 58 وما بعدها (القاهرة 1946)

ولم يتوخ صاحب الكتاب طريقة ابن المقفع في ايراد حكم وامثال غير منسوبة الى اصحابها بل كثيرا ما كان يذكر اصحابها كما كان يستشهد بالشعر فهو يذكر عمر بن عبد العزيز والاعشى وامية بن ابي الصلت ولبيد وطفيل الغنوي... وهذه ظاهرة من ظواهر فن الادب الذي سيزدهر بصفة خاصّة على يدي الجاحظ .

واخيرا ينبغي ان نلاحظ ان المناقشات حول العقل والعلم والخير والشر والحرية لا تختلف عن جدال المعتزلة وقد عاصرهم سهل بن هارون وشهد انتصارهم ولا شك انه تأثر بمباديهم .

وهكذا فلئن كانت الادلة المادية على صحة نسبة هذا الكتاب الى مدير بيت الحكمة تعوزنا باستثناء ما اقتبس منه من اقوال وردت في كتب الادب فان منهج هذه القصة ومعانيها وما تذكرنا به من جو سياسي وفكري كل ذلك يجعلنا نرجح ان كتاب النمر والثعلب هذا من تأليف سهل بن هارون .

***

ونحن ننشر فيما يلي مقتطفات من كتاب النمر والثعلب حاولنا ان تكون ممثلة لمختلف جوانبه...

مقتطفات من كتاب النمر والثعلب

تحقيق : عبد القادر المهيرى

لبسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

قال سهل بن هارون الكاتب رحمه الله :

الحمد لله الذي فطر العباد على معرفته واوكل الالسن على عز صفته وحسم الخلائق عن ادراك كيفيته وخلق الملأ خلقا نوريا وكوّن الآدميين ما شاء أطوارا وركب البروج وادار الافلاك وخلق الليل والنهار فتبارك الذي بان في ملكوته والملك الحاكم في بريته وتعالى الحي الدائم الذي لا يموت وسبحان المهيمن القدوس الذي لا يتوارى عنه ما رقّ من مخلوقاته في ليل داج ولا في سماء ذات ابراج ولا في ارض ذات فجاج ولا في بحور ذات امواج ولا في ظلم ذات ادعاج يعلم الخفي وفوق الخفي ودون الخفي واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الذي لا تشتبه عليه الاصوات بضروب اللغات والعالم بمكنون الخفيات واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله نور فلق به الظلمات واتمّ به الكليّات واوضح به الدلالات واقام به الرسالات وختم به النبوات وافتتح به الخيرات اذ (1) بعثه نبيا وهاديا ورسولا داعيا اليه ودالا عليه وحجة بين يديه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اما بعد ايّدك الله بتوفيقه وعصمك بتسديده فاني رايت ان اصنع لك كتابا في الادب والبلاغة والترسّل (2) والحروب والحيل والامثال والعالم والجاهل

---

(1) فى الاصل : الذال ليست واضحة كل الوضوح بل ان شكلها شبيه بالنون

(2) فى الاصل : الترسيل

قال سهل ابن هارون الكاتب رحمه الله

الحمد لله الذي ...

ظهر الورقة الاولى

وان اشرب ذلك بشيء من المواعظ وضروب من الحكم وقد وضعت من ذلك كتابا مختصرا موعيا شافيا وجعلته اصلا للعالم الاديب والعالم الاريب مما امكنني حفظه واطّرد لي تأليفه والله نساله الفوز والتأييد والتوفيق والتسديد ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم (3) .

ذكر ان ثعلبا يقال له مرزوق ويكنى ابا الصباح اقام في واد لم يكن به غيره فعبر عليه زمان وهو في حسن الحال آمن السّرب رخي البال فمر به صديق له من الثعالبة يقال له طارق ويكنى ابا المغلس فنزل عليه فأحسن ضيافته واكرم مثواه ، فقال له طارق : يا ابا الصباح كل امرك جميل وكل فعالك فعلى (4) سبيل حزم وصواب تدبير ، غير اني اراك احتفرت جحرك بمكان سوء وإنه لاحق منزل بترك . فقال له مرزوق : يا أبا المغلّس ، وما الذي انكرت عليّ منه وغمصت (5) علي فيه فأنت من لا اتهم في عقله ونصيحته لاهل مودّته وما عقالك لهم بأنشوطة وإني لعلى حبل ذراعك والمؤمن مرآة أخيه ، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال : رحم الله من اهدى الينا عيوبنا ، فقال له طارق : ان أخاك من صدقك والشقيق بسوء الظن مولع وإني اراك في واد عظيم وبه من آثار السيل ما ترى ، وما تدري ما يحدث ولست آمن عليك ان يدهمك منه بالليل ما لا طاقة لك به ، وهو احد الابهمين ، والسيل خرب للمكان العالي . فنشدتك الله في نفسك واهلك الا تحولت من هذا الموضع ، واستبدلت به غيره فقال له مرزوق : فأنت من لا اتهم في رأيه ومشورته ، وسأتقدم الى زوجتي في

(3) من الملاحظ ان هذه الفقرة بمثابة التعريف بكتاب النمر والثعلب وبمحتواه
(4) في الاصل : فعلي
(5) في الاصل : وعمصت

التحويل ؛وقام فدخل عليها فقال : يا هذه قد كان فرط من خطئنا (6) في المقام بهذا الوادي ما كان يهلكنا حتى(7)أتاح (8) الله لنا صديقنا ابا المغلس، فحذرنا المقام به ، وخوّفنا السيل ونحو بعفوبه (9) وانـه كان يقال : التقدم قبل التندم ، فاجمعي اليك متاعك وانتقلي فقالت له : ما هذا من صديقك بالنصيحة لك ، ولكـنه رأى غضارة عيشك بهذا الوادي وقرب مغارك وبعد اعدائك فحسدك اياه ، ونحن به نزول منذ (10) سنين فما راينا من سيله ما يروعنا وجحرنا بالمعـزل عن سننه (11) ، فزل عن هذا الرأي ولاتحفل به . فخرج الى طارق فاعلمه بخلاف زوجته عليه وما اعترضت عليه من خفض (12) العيش وطول السلامة ، فقال له طارق : يا ابا الصباح : ان لم تسمع منا النصيحة فنحن منك بحل ، وانه كان يقال : العزيمة حزم والاختلاط ضعف ، وليس للنساء راي فلا تحملك زوجتك بلجاجها على امر فيه عطبك ، واعرف ذلك مما يقول طُفيل الغنوي شعرا :

ان النسـاء كـأشجـار نبتـن معـــا   منهـن مـرٌّ وبعض المرّ مـأكـول
ان النســاء متـى ينهيـن عـن خلـق   فـانـه واجـب لا بـد مفعـول (13)

ثم ان طارقا ارتحل عنه واقام مرزوق بمكانه ، فبينما (14) هو على تلك من حاله حتى جاء السيل فنظر اليه مرزوق فقال لزوجته : خذي (15) الامـر بقوابله فقد علمت ما قال القطامـي (16) في شعره :

وخيـر الامـر مـا استقبلـت منـــه   وليـس بـان تَتَبّعـه اتباعـا

(6) فى الاصل : خطاينا
(7) فى الاصل : حتـا
(8) فى الاصل : انـاخ
(9) فى الاصل : ونحن بعقوبه
(10) فى الاصل : منـذوا
(11) فى الاصل : سنته
(12) فى الاصل : حفض
(13) البحر البسيط وضربـه مقطوع
(14) فى الاصل : فبانما
(15) فى الاصل : خـذى
(16) فى الاصل : القماطى والبيت من الوافر

وقال بعض الحكماء : شر الرأيِ الدَّبريِ ، وقال متمثلا : قبل الرمي يُراش (17) السهم ، فالنجاة (18) الآن ولات حين مناص . قالت له زوجته : ما كل ارب نفور ، وقد يجيء مثل هذا في السنة مرارا فما يصل الينا اوله حتى ينقطع آخره ، فلا تخرجنا من وطننا فانا به راضون ؛ وانهما لعلى ذلك من مراجعتهما اذ دخل السيل عليهما فخرج الثعلب من جحره ليهرب ، فاحتمله السيل فقصد لبعض ما جاء به السيل من الخشب فتعلق به واسلم نفسه ، فما نهنهه الى ان قذف به في البحر ، فلما راى البحر قال يخاطب نفسه : استمسك فانه مقدر بلك فأجاب نفسه عن نفسه :

وكيف توقى ظهر ما انت راكبه (19)

ثم تمثل بقول اميّة حين قال :

يوشك من فرَّ من منيته　　في بعض غراته يوافقها
ما رغبته النفس في الحياة وان　　عاشت طويلا والموت لاحقها
يقودها قائد اليه ويحدوها　　سريعا اليه سايقها
من لم يمت غبطة يمت هرما　　الموت كأس والمرء ذائقها (20)

ثم لم يزل يترامى به الموج حتى القاه الى جزيرة من جزائر البحر ؛ فلما استقرت قوائمه على الارض قال : من لم يفت لم يمت ، ثم تمثل بقول الاعشى شعرا :

شباب وشيب وافتقار وثروة　　فلله هذا الدهر كيف ترددا (21)

(17) فى الاصل : تراه آش
(18) فى الاصل : فالنجات
(19) من البحر الطويل ولم نتمكن من الاهتداء الى صاحبه
(20) المنسرح انظر شعراء النصرانية ج 1 ص 235
(21) من الطويل

فاقبل وادبر يومه لا يسمع حسيسا ولا يرى انيسا واوحشه ذلك وظن انه هالك وبات ليلته طاويا حتى اصبـح ؛ فبينما هو في تردده استقبله ذئب فسلـم عليـه وسأله عن اسمه وكـنيته فقـال له الذئب : اسمى مكـابـر وكـنيتي ابـو (22) الفراء ، فما اوقفك ايها الثعلب بهذه الجزيرة وليس لك فيها اكـل ؛ فقص عليه الثعلب قصته وقال له : كـيف ايأستنـي يا ابا الفراء من الطعم بهذا الموضـع ؛ فقال له الذئب : انه ليس فيها الا الظباء وبقر الوحش ؛ فقال له الثعلب : وما يمنعـكم ان تصيدوها فأصيب من رسلـكم ؛ فقال له الذئب : نحن هاهنا جماعة ما يتجرأ واحد منا ان يخرج من بابه شبرا واحدا ؛ وانا لمن الهزل والضرّ في ما ليس فيه خلق ؛ قال له الثعلب : وما دهاكم ؟ فقال له الذئب : ها هنا نمـر يقال له المظفر بن المنصور قد تملك على هذه الجزيرة وغلب عليها ، وهو مـن شراسته وبخله وضيق خلقه على ما قد عرفت من صفة النمور ، وانـي لا كـلمك وما آمنه فرقا ان يخرج فيرانا ، فتفرقا وتواعدا موضعا خفيا يلتقيان فيه من غـد . فانصرف الثعلب حزينا مغتما لما حزره من عداوة النمور وعدم القوت ؛ ثم فـكـر فقال : انما يعرف فضل عقل المرء في شدائد الامور ونوازل الخطوب ، فأما عند الرخاء فما اقرب الجاهل من العالم والاحمق من العاقل وذلك ان مساعدة الدنيـا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب ، وليس لمثلي قوة على صيد الظباء وبقر الوحش وانما يصد كـل امرء قدره ، وليس ها هنا الا طلب الحيلة . فلما اصبـح الصبـح قصد المكـان الذي وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رقبة من النمر فقال له الثعلب : يا ابا الفراء كـنت مهموما

---

(21) فى الاصل : ابا ـــ من الملاحظ ان هذا الاسم لم يضبط فى المخطوط بطريقة واحدة فتارة نجد : ابو الفرا وطورا : ابو الغراء ومرة ثالثة ابـــو العداء

بنفسـي فزادنـي اهتماما ما ابثثتني (23) من حديثك والقيت الي من سوء حالك ، وها هنا تدبير ان اعتنتني عليه بهمة صادقة فلعله ان يعود الى صلاح ؛ فقـال الذئب : وما هو ؟ قال الثعلب : ائت النمر فسله ان يوليك ولاية ترد عليك نفعـا وتورد (24) لك ذكرا وتـكسبك حمدا ، قال الذئب : فأين ما اخبرتك على بخله وشراسة خلقه ، وانه لـكما قال القائل : سواء هو والعدم .قال الثعلب : فاعلمه (25) انك لا تفيد شيئا الا بعثت اليه بشطره ، فان لك فيما يبقى منتفعا وصلاحا ، فان اجابك فلن تعدم منـي معونة حسنة وقياما بالذي يجب فـكن كما قال الشاعر(26)

وليس الـرزق عن طلب حثيث ولـكـن ألق دلوك في الـــدلاء
يجيـك بمليهـا طـورا وطـورا تجـيء بحمـأة وقليـل مـاء

قال الذئب : يا ابا الصباح : انه كان يقال : اتقوا مقارنة الحريص الغادر، فانه ان رآك في القوة رأى منك اخبث حالاتك ، وان رآك في الفضول لم يدعك وفضولك قال الثعلب : يا أبا الفراء : انه ليس الـرأي عن (27) من عاش غيـر خامل الذكـر والمنزلة اذا افضل على نفسه واصحابه فهو وان قل عمره طويـل العمر ، ومن كان عيشه في ضيق وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس فهو وان طال عمره قصير العمر (28) . قال الذئب : انه كان يقال : في امور ثلاثة لايجترىء

(23) فى الاصل : ابثتنى
(24) فى الاصل : تـود .
(25) فى الاصل : فاعمل
(26) هو ابو الاسود الـدؤلى انظر الاغـانى ج 11 ص 117 (ط القاهـرة) وهو من البحر الوافر
(27) توجد بعد عن كلمة لم نتمكن من فهم معناها وقد رسمت هكذا « الشاق » ولعلها : « انه ليس الراى الشاق »
(28) هذا الكلام قريب جدا من قول ابن ابن المقفع : « فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وافضال على اهله واخوانه فهو وان قل عمره طويل العمر ومن كان فى عيشه ضيق وقلة وامساك على نفسه وذويه فالمقبور احيـا منـه (كليلـة ودمنـه)

عليها الا اهواج ولا يسلم منها الا قليل : صحبـة السلطـان وائتمـان النساء على الاسرار وشرب السمّ على التجربة (29) . قال الثعلب : قد يبلغ الخصم النضج(30) ويركب الصعب من لا ذلول له وليس يواضب على باب السلطان احد فيلقـي عن نفسه الانفة ويتحمل الاذى ويكـظـم الغيظ ويرفق بالناس الا خلص الى حاجته من السلطان (29) قال الذئب : انه كان يقال : لا تغتبط بسلطان مع غير عدل ولا بغنـي من غير حل ولا ببلاغة من غير صدق ولا بجود من غير اصابة ولا بحسن عمل من غير خشية قال الثعلب : انه ينبغـي للعاقل ان يداري الزمان مداراة (31) الرجل السابح في الماء الجاري وقال المتمثل (32) ارضى من المركـب بالتعلق؛ قال الذئب : السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبته قال الثعلب : المال زيادة في القوت والرأي وليس الاخـوان والاهل والاعوان الا مع المال ولا يظهر المروءة الا المال لان من لا مال له اذا اراد ان يتناول امرا قعد به العدم فقصر عنه . قال الذئب : ان للسلطان سكـرات فمنها الرضى عن بعض من يستوجب السّخط والسخط عمن يستوجب الـرضى ولذلك قيـل : قد خـاطـر من لجج في البحر واشـدّ منه مخاطرة من صاحـَب السلطان ، قال الثعلب : من لم يركـب الاهوال على صعوبتها لم ينل الرغائـب ومن ترك الامر الذي لعله ان يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يوقاه فليس ينـال جسيما وقد كان يقال : اعمال ثلاثة لا احد يستطيعها الا بمعونة ارتفاع همّـة وعظم خطر : صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو (33) . فاعجب الذئبَ

(29) يوجد هذا القول بحذافيره فى كتاب كليلة ودمنة
(30) هكذا فى الاصل
(31) فى الاصل : مدارات
(32) فى الاصل : المتثل
(33) يوجد هذا القول فى كليلة ودمنة

كلامُه فأتى النمر فشكر له واقام بين يديه وكان لايعرفه بمثل هذه (34) الذلة فافتتح الكلام فقال : ايها الملك : اني لما انا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خاليا من صالحي الاعوان وثقات الخدم ولما رأيت الملك كثير الكلف عظيم المؤن رحب العناء جزل العطاء وليس له من عبيده من يعينه على مؤونة ويكفيه الهمم من عمله ندبت نفسي للذي رأيتني اقوى عليه من حسن السياسة وضبط الناحية التي اتولاها ورد المنفعة على الملك منها فاعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده فقال له : صدقت وبررت وانا مستكفيك ومقلدك فانظر كيف يكون ضبطك وكفايتك وعناؤك ووفاؤك بما شرطت على نفسك . أكتب له يا غلام عهده على مناهل الظباء واجمع له اعمال ما هنالك فخرج الذئب الى عمله واستخلف الثعلب واحلّه محل الوزير الكاتب...

....

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم .

اما بعد فان كتاب الملك امتع الله به وصل الي بما حذر فيه وانذر وقدم واخر وفهمته وقد كان الملك حفظه الله اسنَد الي امر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به وانقطاع من سبله واختلاف من الكلمة بين اهله وتفرُّق من الاهواء فيه فرأيته صدع الآفة وجمعت شمل الطاعة وكشفت دُجمه الفتنة واسغت الريق بعد الشجا وقمعت اولي العداوة والبغضاء واقمت حقا كان معلمه متروكا ودمغت ضلالة كان محرَّمُها مسلوكا التمس بذلك جزيل الثواب وكريم

(34) في الاصل : بهـذه

المـآب ورضا الملك والزلفة عنده فعاد ما عملته هباء ولم اجد منه شيئا مشكـورا وما يقعقع لمثلي بالشنان واني لا لوى بعيد المنتشر فان يستتم الملك صنيعته ويرُب نعمته فانا بين العصا ولحائها والا فيسجدني جدلا حكاكا (35) اذا نكـأت قرحة ادميتها احمـر ضرابا بالسيف والسلام .

فلما قرأ الملك الكـتاب علم انه قد اجمع على الخلاف عليه والمحاربة له فجمع وزراءه وكانوا ثلاثة فاستشارهم في امره فقال احدهم : ارى ان يكـتب اليه كـتابا موجزا يعرف به ذات نفسه ويكـشف ما في صدره حتى يأتـي الملك على ما يأتـي من امره عن بينة واستظهار عليها بالحجة ، قال الوزير الثانـي : ارى (36) ان يتلافاه الملك ويصفح عن زلته ويتجافى (37) له عما في يده فانه ان بودىء بالعداوة احتيـج الى محاربته والى جمع الرجال وانفاق الاموال بالاضعاف لما كان ينجلب (38) من الخراج بناحيته ثم لا يدري كـيف تكـون العاقبة اذ هـي الحرب والحرب سجال فان تكـن الحسنى فبعد نفاد المال وسفك الدماء وان تكـن الاخرى جل الخطب وتفاقم الامر ودمن العدو بكـل مكـان واشربـت الفتنة فانه كان يقال : اكـيس القوم من لم يلتمس الامر بالقتال ما وجد الى غير القتال سبيلا فان النفقة فيه من الانفس والنفقة في سائر الاشياء من المال ومن يؤاكـل الفيل يؤاكـل الحين . قال الوزير الثالث : لا ارى تلك ولا هذه ولكـن ارى معاجلته ومناجزة الحرب قبل استفحال (39) امره واستغلاظ شأنه واستجماع

(35) فى الاصل : حكاك
(36) فى الاصل : ارا
(37) فى الاصل : يتجافا
(38) فى الاصل : تنجلب
(39) فى الاصل : استحفال

والبعد من [illegible] والقرب من [illegible] الا متنان

قال يصيب البعد والذنوب قال نعم الله اكثر من ان [illegible]

شكره [illegible] عليه [illegible] ذنوب ابن آدم اكثر من ان يسلم

منها الا ما عفى عنه قال بما تكون [illegible] الصنيعة احسن قال اذا

كانت عند ذي حسب او دين قال انما يصيب الضر قال ان

يتكلم العقل الراجح بصواب الخطا ساهيا او بارحا قال بما

يعرف الرجل قال بما اكثر منه قال بما تذهب هيبة الرجل

قال في كثرة ضحكه قال بما تخرج [illegible] قال في

كثرة مزاحه قال بما يكثر سقط منطقه قال في كثرة [illegible]

وقال وما في كثرة كلامه قال قلة حيائه قال وما في قلة حيائه

قال موت قلبه قال وما في موت قلبه قال رقة دينه قال وما

موضع الامانة من الاسلام قال موضع السلامة [illegible]

قال فما من عاقبة الندامة قال في كثرة الكلام [illegible]

يعرف الفتى من عثرة من لسانه وليس يعرف المرء من عثرة [illegible]

بعثرته بالقول ترمي برأسه وعثرته بالرجل [illegible]

قال من الجواد بالفطنة قال المعترف [illegible] قال كيف [illegible]

الضمير قال على نور المصيبة قال كيف [illegible] المعونة قال [illegible]

نور المؤنة قال بما يصح [illegible] قال [illegible] له [illegible]

جلس اليه [illegible] بالسلام ويدعوه باحب اسمائه اليه

قال فما افضل اعمال البر قال انتظار الفرج قال كيف الرئيسة

بعدنا قال مثلها بعده [illegible] فاعجب [illegible]

من كلامه ورأى من حسن عقله وجودة منطقه [illegible]

وبعد رايه وثبوت حجته ما لم يجاوزه [illegible]

بالجوائز بالمقام في جواره [illegible]

ان يرحم وامر ان [illegible] ويحمل [illegible] ومشوزة [illegible]

[illegible] والحمد لله رب العالمين.

مـكـائده فان السلطان لا يستـكـثر انفاق مال عظيم على اصلاح الناحية اليسيرة وما الصلاح في ذلك بخـاص لناحية العدو دون سائـر النواحـي والاطـراف فان اعناق اهل الفتن بـكـل ثغر خاضعة ومتى رأوا ان سنة السلطان في من نبذَ امره جارية على ما اشار به الوزير الثانـي من النظرة مدوا للفتنة اعناقهم ووضعوا اثقال فرائض السلطان عن ظهورهم وبسطوا ايديهم واتصل لذلك ما لا صلاح معه في دين ولا دنيا . فأخذ النمر بقول الوزير الاول فأمر بالـكـتاب اليه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد النبـي الـكـريم .

اما بعد فانـي رأيتك تقدم رجلا وتؤخر اخرى فاذا نظرت في كـتابـي هذا فاعتمد على ايهما شئت فان كـنت سلما فأقبل والا فأذن بحرب والسلام .....

....

... فاستقبله الوزير الاول بوجهه فقال له : اخبرنـي عن الانسان وحـالـه ونقصه وكماله فقال له : معنى الانسان العقل اذا رزقه استحق اسم الانسان واذا عدِمه فقد نقص ولا يلزمه الا اسم الصورة ثم قال : فان لحق بعضا وقصر بعضا فهو انسان ناقص . قال : فاخبرنـي عن العقل اهو شـيء اذا نال الانسان ادناه فقد بلغ اقصاه ام الناس في نيله مستوون ام متفاضلون قال : بل متفاضلون . قال : فـكـيف دعُـي ذو الحظ اليسير منه باسم ذي الحظ الـكـبير فقيل لهما عاقلان وهمـا في العقل متباينـان فهـل يقع اللقب الواحـد على ذوي الدرجـات الشتى ؟ قال : نعم وليس ذلك بخطا من القائل لان هذه الدرجات الشتى من جنس واحـد واللغة تضيق عن هـذا وما اشبهـه ان يدعو كـل ذي درجـة من درجـات الجنس الواحد بلقب غيـر لقب الآخـر ولو كـلفت اللغة ذلك لطـال

الـكـلام في غيره لتوزع المعنى المستوجب للاسم ولـكـنها شملت كـلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد . قال : فـكـيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد : قال بالتمييز وكشف المعرفة ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به اهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت اذ يقال : بناة (و) بحارون (40) وتجار وخيّاطون ولـكـل منهم على صاحبه في الصناعة فضل او عليه له فضل . فالناس كـلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل وهم فيما اتوا منه متفاضلون احدهم فيه اكـثرهم حظا منه . قال : كـيف مرّت هذه الغاية ومنع ذوو العقل بلوغها . قال : لان الغاية كمال والـكـمال صفة لا تصح الا للخالق ولا يستوى الخالق والمخلوق في صفته تعالى الله عن ذلك . قال : فهل تحيط المعرفة بمقـدار عقـل الانسان حتـى اذا اراد واصف ان يصفه لم يجاوزه حده الى زيادة ولم ينقص عنه الى نقصان ؟ قال : ان ذلك ثبات المعرفة وقد يوجد الانسان ثابت المعرفة بشـيء وغير ثابتها بشـيء آخر وخلال ذلك درج كـثيرة فلا يقدر على احصاء ما ثبت فيه معرفة المرء مما لا يثبـت الا الخـالـق .....

(40) ما بين قوسين ليستقيم التركيب

ابـو بكـر بن بـاجـة ونـزعتـه الفلسفية

من خــلال « تــدبير المتوحــد »

بقلم : المنجى الشملي

تــوطئــة

لعل مضمونَ الفلسفة اليونانيـة عامـة ــ كما أشاعه علماءُ المذهب الافلاطونـي الجـديـد الذي خلّفه أفلوطين ، تلمـيذ أمونيوس الحمـال مؤسسِ المدرسة الفلسفيّة الاسكـندرانية ــ ومضمُون المدرسة الرواقيـة خاصة ، من أهمّ الدوافع التـي جعلت المسلمين يقبلون على الفلسفة ، يمارسونها بالشرح حينا ، والتعليـق حينا آخر ، والتأليف الشخصـي بعد ذلك أحيانا .

لقد اطمأن الفلاسفة المسلمون إلى ما كان يقول به الرواقيون مـن صـدور الافعال الانسانية عن قوى طبيعية عليا تدبّر العالم تدبيرا حكـيما ، ومن وجوب الاعتقاد بأن قسمة الحظوظ بين الناس أمرٌ مقدور ، لا بدّ من وجـوب الصبـر عليه صبرا جميلا . ولعلّ أهمّ ما طَمْأَنَ المسلمين او استهواهم إيمان الفلاسفة اليونانيين بوجود صانـع لهذا العـالم حكـيـم ، هو علـة الموجـودات ، وله غايـة الـكـمـال والجمـال .

هكـذا نشأت الفلسفة الاسلامية (1) فكـانت وارثة للفكـر اليونانـي إلى حدٍّ بعيد ، متغذية به في نشأتها الاولى ، معتمدة إيّاهُ في تطوُّرها ، متمثلـة لمبادئه ثم فاحصة ناقدة في عنفوانها ، رادّةً آراء المعلم الاوّل تارة ، قابلة إيـاهـا طـورا (2) .

كان يبدو أنه لا توجد إذن مصاعب تعوق تبنّي المسلمين للفلسفة اليونانية . على أنه نشأت معضلة . من يوم أن نقل جماعة من النساطرة ، مؤلفات يونانية ، من السريانية إلى العربيّـة ، تبحث في العلم والحكمـة . نشأت معضلـة صعبـة المراس شائكـة ، جوهرها البحث عن التوفيـق بين مبـادىء الاسلام ومضمـون الفلسفة ، والتساؤل هل يمكـن أن يكـون المسلم فيلسوفا بدون أن يختل إسلامه ، وهل يجوز للمسلم أن يغذي عقله بمؤلفات يقول أصحابها بقدم العالم ، واتحاد الانسان مع الصانع الحكـيم ، وفنائه فيه وعقله ، فيصبـح هو أو كـأنه هو ؟ وهكـذا فزع أيمة السنة من هول الخطَر ، وناهضوا البدعة ونادوا بالحذر ، وتألبوا على من خالف كـلام الله « فكـفر »!

منذ البداية إذن وُصـم الفلاسفة بالالحـاد وَوُصمت الفلسفـة ، وأصبـح الفيلسوف المسلم يرمـى بالزندقة والنفاق ، فكـثيرا ما يعيش غريبا قلقا .

(1) نفضـل وصف الفلسفـة التى نشـأت فى الاسـلام « بالاسلاميـة » دون « العربية » لاسباب تاريخية معلومة : اذ ان ازدهار الفكر الاسلامى كان ناشئا عن انتشار الاسلام وقوة المسلمين .
— انظـر : ابن خلـدون : المقدمـة — تحقيق على عبـد الـواحـد وافى (القاهرة 1960) ج 3 ، ص 1090 .
— انظر : عرض على عبد الرزاق لهذه القضيه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية (القاهرة 1959) ص 16 — 20 .
— انظر : احمد فؤاد الاهوانى : معانى الفلسفة (القاهرة 1947) ص 30 .

(2) راجع : المقدمة ، ج 3 ، ص 1090

ورغما عن شديد المعارضة التـي اصطدم بها الفلاسفة ، فقد أقبلوا على هذا العلم الجديد بـكـنه الهمّة ، مولعين بدرسه ، وحَذقوه بالشرح والتعليق ، وتجاوزوا ذلك إلى الرأي والابتـكـار ، حتى « أصبـح العرب — في القرن العاشر الميلادي ، يعتبرون الفلسفة ، حسب تعبير « ديترسى » رأس المعارف (3) .

وما كان إقبال المسلمين على الفلسفة إعراضا عن الدين . بل إنّهم كـثيراً ما كانوا يعمدون إلى القـرآن ، به يستعينـون على فهم ما غمض من الفلسفـة ، شأنهم في ذلك شأن المسيحيين من قبلهم ، في استعانتهم بالايمان كـلما قامت في وجوههم معضلة التوفيق بين العقيدة والعقل . كـذلك كان الفلاسفة الاسلاميون يقولون بأن الايمان يعين على إدراك الحقيقة الفلسفية ، ويصرّحُون ، في بيـان وتبيين ، بأن الدين كان لهم خير معين على تمثّل المشاكـل الفلسفية (4) .

فالناظر المتجرّد في الفلسفة الاسلامية لا يجد بدّا من التسليم بأن المسلمين علقوا التعليلَ ودفعوا إلى التفـكـير منذ أن وجدوا أنْفسهم في حاجة إلى تعمـق مضمون القرآن وتحليل المبادىء الدينيّة التـي نشأت منها العقيدة الاسلامية ؛ ولا يجد مناصا من التسليم كـذلك بأنّ المسلمين اقبلوا على الفلسفة الاغريقيـة من حيث هـي وسيلة كـفيلة بتوضيـح الغوامض الدينيّة .

---

(3) ذكـره DIETERCI « Die Philosophie der Araber » Buch VIII. p.v (M. Allar : le Rationalisme d'Averroès, in Bulletin d'Etudes Orientales. T XIV. Années 1952-1954. Damas 1954. p. 13)

(4) يشير الكندى اشارة طريفة الى هذا الموضوع فى كتابـه الى المعتصم بالله « فى الفلسفة الاولى » (تحقيق احمد فؤاد الاهوانى) القاهرة 1948 ص 80 — 81 — 82 ، مبينا سوء طويـة رجال الدين الذين يؤولـون الفلسفة ، وهم غـرباء عن الحق : « ... تـوقيا سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر فى دهرنا من أهل الغربة عن الحـق ، وان تتوجـوا بتيجان الحـق من غير استحقاق ، لضيق فطنهم عن اساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذو الجلاله فى الراى والاجتهاد فى الانفـاع العامـة الكـل ، الشاملة لهم ، ولدرانة الحسد المتمكن من انفسهم البهيمية ... »

كانت فلسفة إسلامية إذن ، وكان فلاسفة إسلاميون ؛ ومنهم من نجح في إنشاء مذهب فلسفي منسق العناصر ، يختلف ، اختلافا تامّا أحيانا ، عن الفلسفة التي كانت تدرّس في الاكاديمية الافلاطونية او الليسية الارسطية أو المدرسة الافلُوطينيّة .

ولكنّ أيمة السنّة ورؤوس الكلام لم يكونوا ليرضَوْا عنهم ؛ وأقدموا على التنديد بهم متعصبين ، وتكفيرهم غير مقتصدين ، حتى أغروا بهم العامّة والخاصّة ، وأحاطُوهم بمختلف الشبهات ؛ وحسبنا التذكير بما قضى به رأس المتكلمين — أبو حامد الغزالي — في شأنهم : من تبديع ، ووصم بالزندقة ورمي بالكفر .

واجتهد « محيى علوم الدين » — وهو الشخصية القوية الجذابة التي نعرف ، في التوفيق بين السنة والمتصوّفة ، داعيا إلى « التأمّل والذوق والتقوى » ، رادّا — أعنف الردّ — حاكم العقل الذي يقول به الفلاسفة ، مبيّنا أن العقل غير كفيل بأن يوصلنا وحده إلى الحقيقة . مؤكدا أن نقصه لا يُتمّمُ إلاّ « بالذوق والحال وتبدّل الصفات » (5) فالغزالي يرفض الفلسفة العقلية ليحل محلّها فلسفة تصوّفية . وقد قيل الكثير في شأن هذه المهاجمة للفلسفة من قبل الغزالي . ويكادُ يكون الاجماع على أنه ضرب الفكر ضربة كان لها بعيد الاثر في تعطيل

(5) يقول الغزالي فى المنقذ من الضلال (مجموعة الروائع الانسانية — الاونسكو) بيروت 1959 ص 35 : « اقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس .. حتى يتوصل (بها) الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ..؟ فابتدات بتحصيل علمهم .. حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ... فظهر لى ان اخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات »

الفلسفة في بلاد الاسلام عامة والمشرق العربـي خاصة ولو إلى حين . على أننـا نرى أن أبا حامد انتبه إلى مشاكـل جوهريّة متصلة بالتفكـير الفلسفـي ، وكان يمكـن له أن يـكـون من أعظم الفلاسفة ، بالمعنى الاصطلاحـي ، لو لم يسرع إلى الاحتْماء بالتعاليم الصوفية مستسلما إليها ، استسلاما عاقه عن الوصـول إلى استنتاجات تمكـنه من استنباط مذهب فلسفـي أصيل ، (6) — وهو الذي رفع من شان الفلسفة — ضمنيا — بقدر ما هاجم الفلاسفة ، وهو الذي أقرّ بوزنهـم بقَدْر ما عنفهم واصما مسفّها .

وأفل نجم الفكـر الحرّ في المشرق العربـي ، وكان تنديد الغزالي بالفلسفة اليونانية قاضيا على تطور الفلسفة الاسلامية ، وركـدت سوق العقل بقدر مـا نفقت سوق التأمل الباطنـي . وقُضـي بأن العقل لا يساكـن الوحـي ، أو ان الفلسفة لا تساكـن الدين (7) . ونالت أراء الغزالي ، في عصره ومن بعد عصـره

(6) راجع فصلا كتبه المستشرق « Roger Arnaldez » عن جمود التفكير الفلسفى (عند المسلمين) فى

Classicisme et Déchin Culturel dans l'Histoire de l'Islam (actes du symposium de Bordeaun : 1956) Paris 1957, p. 257.

(7) يهتم الغزالى فى تفنيده لاراء الفلاسفة بابطال نظريات ثلاث اساسية وهى : القول بقدم العالم ، القول بان الله لا يعلم الا الكليات ، القول بانكـار بعث الاجساد .

— ويرى المستشرق « دى بور » ان الغزالى اعتمد فى ابطال هذه النظريات شرح جـون فيلوبـون (Johannes Philoponus) النصراني لفلسفة ارسطو (راجع ت. ج. دى بور T.J. De Boer تاريخ الفلسفة فى الاسلام — تعريب محمد عبد الهـادى ابـو ريـدة — القاهرة الطبعـة الرابعة . 1957 ص 331)

— ويـذكر البيهقى فى تاريـخ حكمـاء الاسلام : (مخطوط بـدار الكتب المصرية) فى كلامـه عن يحيى النحوى (وهو نفسـه جون فيلوبـون) ان « اكثر ما اورده الامام حجة الاسلام [....] فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوى »

— ويؤكد هذا الراى الشهرزورى فى « فى نزهة الاراوح » (مصور بمكتبة الجامعة المصرية ص 182 — 183)

(راجع « دى بور » ص 331 ، تعليق 3 للمعرب)

اهتمام الكثيرين ، بين منوّهٍ مكبر ، ورادٍّ مخاصم مفنّد ؛ فخاصمه فقهاء كثيرون ، خصوصا منهم شيوخ الحنابلة ، وعلى الاخص الشيخ تقي الدين ابن تيميّة ، وخاصمه فقهاء المغرب العربي ومتكلموه خصاما اضطر معه السلطان علي بن يوسف بن تاشفين إلى إحراق كتبه . وأشهر من خاصمه من المغاربة ، وأوّل من اعتاد الناس أن يخصوه بالذكر في هذا الشأن فيلسوف قرطبة أبو الوليد ابن رشد ، في رسالته « تهافت التهافت » .

وإنه من الغريب ألاّ يذكر فيلسوفُ سرقسطة — أبو بكر بن باجة — في هذه الخصومة ، وهو أول من تصدى للردّ على نظرية الغزالي من المغاربة ، مؤكدا — على خلاف صاحب التهافت — أن ترويض العقل بالحكمة يوصل الانسان إلى العقل الفعال ، ويضمن له السيرة المثلى والاخلاق الفضلى .

إنّ رغبتنا في توضيح شيء من هذا الغرض ، هي التي حدت بنا إلى التعريف بهذا الفيلسوف الذي طارت شهرته بالامس ، وخمل ذكره اليوم حتى لا يكاد يذكر من بين فلاسفة الاسلام (8) ، ولهذا السبب بالذات أحْببنا

---

(8) يقول المستشرق : كارا دي فو (Carra De Vaux) في كتابه « مفكرو الاسلام » (ج 4) Les penseurs de l'Islam, Paris 1923, 49 « لم يدرس ابن باجة الا قليلا رغم ذيوع صيته . ولم يصل الينا من آثاره الا الشيء اليسير »

— ويقول : سارتون (Sarton) في كتابه « مقدمة لتاريخ العلم » Introduction to the History of Science : Washington : 1950 (2e ed) ج 2 ، ص 183 « لم تدرس آثار ابن باجة العديدة فلا يمكننا حتى اليوم ان نضبط قيمته العلمية »

— ويقول المستشرق دنلوب (Dunlop) في فصل نشر بالعربية في مجلة « المستمع العربي » (القسم العربي باذاعة لندن) العدد 7 ص 9 (السنة الخامسة 1944) : « نرجو ان نطلع في القريب العاجل على مؤلفات ابن باجة في نصها العربي ، وبهذه الطريقة فقط يمكننا ان نعرف حياة هذا الرجل وآراءه ، اذ اعتبره كبار العلماء اثقب الفلاسفة ذهنا في الاسلام »

أن نقبل على رسالته تدبير المتوحد ، كـي نجلو من خلالها نزعته الفلسفية التـي نرى فيها ردا عنيفا ، واضحا حينا ، ضمنيّا أحيانا ، على رأي الغـزالي المنـاهض للفلسفة والفلاسفة ، ملحين بالخصوص في ضبط مذهبه الاخلاقـي مشيرين إلى السبل التـي يراها قمينة بايصال الانسان إلى درك حقائق الامور وبلوغ « السعادة القصـوى » .

التعـريف بابن باجـة

1 — بيئتـه

هو أبو بـكـر محمد بن يحيـى بن الصائـغ ، اشتهر ابن باجّة (9) ، يذكـره الفلاسفة السكـولاستيون باسم « أفمپاس » AVEMPACE وهو فرنجة لاسمه كما فرنج اسم ابن‌سينا ((AVICENNE)) ، وابن رشد (AVERROES) .

(9) راجع : ابن طفيل — حى بن يقظـان — (ذخـائر العـرب) القـاهرة 1956 ص 58 — 62
— ابن ابى اصيبعـة : عيـون الانبـاء فى طبقـات الاطبـاء (دار الفكر) بيروت 1957 ص 100 وما بعدها
— المقرى : نفح الطيب (تحقيق عبد الحميد) القاهرة 1949 . ج 4 ص 345 ج 9 ص 239 وما بعدها
— ابن خلكان : وفيات الاعيان . المطبعة الاميرية 1275 (هـ) ج 2 ص 9 ومـا بعـدهـا
— ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة (ذخائر العرب) ج 1 ص 196 و 414 ومـا بعدهـا
— الفتح بن خاقان : قلائد العقيان — باريس 1277 (هـ)
— بـروكلمان G. A. L.
— عمـر فـروخ : ابن باجـة والفلسفة المغـربية (دراسات قصيـرة) بيروت 1952 (وهو دراسة عامة للتعريف بابن باجة ، ولكنها لا تفى بالغرض فى حياة ابن باجـة ، وتكـاد لا تعـدو — فى خصوص رسالة تدبير المتـوحد — تلخيص بعض الفقرات) (وباجـة ، بالباء المـوحدة ، وبعد الالف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهى الفضة بلغة الفرنج (نصارى الاندلس) : انظر المقرى . ج 9 ص 240)

ولد بسرقسطة في أواخر القرن الخامس الهجري (10) (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) ، وتوفي في رمضان سنة 533 هـ (1138 م) (11) .

وهكذا يكون ابن باجه قد عاش في عهد المرابطين ، بعد ان استولى يوسف ابن تاشفين على الاندلس نهائيا سنة 484 هـ (1091 م) ، إلا سرقسطة التي تمّ الإستيلاء عليها سنة 503 ه (1109 م) من قبل علي بن يوسف بن تاشفين ، وقد خلف أباه على مملكة فسيحة الارجاء .

عاش ابن باجة في عهد هذا الامير : علي بن يوسف بن تاشفين ، الذي اشتهر بافراطه في التدين — كما يذكر المراكشي — حتى التزهد ، يقضي ليله قائما ويومه صائما ؛ وهكذا أصبح مطواعا للفقهاء ، أسيرا لهم ولتمسكهم بمذهب مالك ، حتى انتشر التعصب ، وساد الإرهاب ، وكثرت السعايات ، دفاعا عن الدين وحظرا للرأي والتأويل . وهكذا « لم يسلم فيلسوف... من رمي له بالزندقة والكفر والالحاد... ويكاد يكون تاريخ الاندلس سلسلة اتهامات من هذا القبيل ، كالذي حدث لابن باجة... » (12) .

نشأ فيلسوف سرقسطة في هذه البيئة التي حُظِر فيها انطلاق التفكير الفلسفي ، وسادت فيها روح التزمت حتى أصبح المفكر يعيش غريبا في مجتمعه ؛ وإنا نجد ابن طفيل يشير إلى ذلك في شيء من المرارة فيقول :

« إنّ هذا الامر (يعني الفلسفة) أعدم من الكبريت الاحمر ولا سيما في هذا الصقع (يعني الاندلس) الذي نحن فيه ، لانه من

---

(10) لم نعثر على تحديد مضبوط لتاريخ ولادته

(11) تكاد تنفق جميع المراجع على هذا التاريخ (الا ابن اصيبعة الذى لم يذكر عنه شيئا) واما المقرى فانه يذكره ويضيف « وقيل سنة خمس وعشرين » (انظر : المقرى . ج 9 ص 240)

(12) احمد امين : ظهر الاسلام (القاهرة 1953) ج 3 ص 234

الغرابة في حدّ لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشيء منه ، لم يكلم الناس إلا رمزا . فان الملة الحنيفيّة والشريعة المحمدية منعت من الخوض فيه وحذرت عنه... » (13) .

2 ـ عناصر حياته

قضى أبو بكر شبابه في مدينة سرقسطة ـ مكان ولادته ـ ولا نعلم عن تكوُّنه الثقافي شيئا مضبوطا يذكر . إذ قد ضنت المراجع الامهات ، التي أشارت إليه ، بذكر عناصر حياته ؛ كتب لابي بكر بن إبراهيم الشهير بابن تِيفلْوِيتْ ، صهر علي بن يوسف بن تاشفين ، وعامل سرقسطة من قبله (14) وسفر بينه وبين عماد الدولة بن هود (15) .

وحالما توفي « ابن تيفلويت » سنة 509 هـ (1117 م) رحل ابن باجة عن سرقسطة قبل سقوطها في قبضة النصارى بيد ألفونس المقاتل ملك الارغوانة (Le roi d'Aragon) سنة 512 هـ (1119 م) ، واتجه إلى بلنسيّة (16) ثم إشبيليّة حيث اشتغل بالطب وألف في المنطق . ثم أقام بالمريّة زمنا ، فغرناطة .

ويَبْدُو أنه لما مرّ بشاطبة ، اعتقله الامير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين بتهمة الزندقة (17) . ويبدو ان سجنه لم يطل بفضل المساعي التي بذلها لفائدته والد ابن رشد ، فيلسوف الاندلس الشهير .

---

(13) ابن طفيل ص 61 ـ 62

(14) المقرى : ج 9 ص 240 ، ثم ص 235

(15) هذا ما يجعلنا نميل الى الظن ان ابن باجة عند ما كتب وسفر ، كان على الاقل فى سن الشباب ، (العشرين مثلا) وهكذا فان ولادته « فى اواخر القرن الخامس الهجرى » قد تكون حوالى 480 هـ واذا ما ذكرنا انه توفى سنة 533 راينا انه عاش على الاقل حوالى الخمسين سنة ، ولم يمت شابا كما يقال

(16) المقرى ج 16 ص 233

(17) يقول الفتح ابن خاقان : « اعتقله اعتقالا شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة اسلامه » (ذكره المقرى ج 9 ص 234)

ويبدو أن حياته قد طابت حينا بعد إطلاق سراحه ، وشمله عطف الامير إبراهيم ، فأقبل على مجالس الانس والنوادي الادبيّة ، يلقن فيها القيان اعاريض من القـريض (18) .

وارتحل بعد ذلك إلى فاس ، حيث نال الحظوة في بلاط المرابطين ، والغالبُ على الظن أنه « وزّر ليحيى بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب » واشتهر عنده بحسن السيرة وسداد الرأي والحذق في تدبير الامور (19) ولعل هذه الرتبة التي حازها في البلاط ، وقربه من الاميـر ممـا أوغـر صدر الحساد عليـه ، من كـتاب وأدباء وأطباء حتى كادوا له ، وعكـروا عليه صفو حياته ، فدَسّوا لـه السم . فتوفي سنة 533 (20) ودفن ابن باجة بمدينة فاس بالمغرب الاقصى وقبره غير بعيد عن قبر أبـي بـكـر بن العربـي المتوفّى سنة 1240/638 (21) .

ومن اشد الذين حقدوا على فيلسوف سرقسطة ، الفتح بن خاقان الاشبيـلي المتوفى سنة 535 هـ ، فعرض به شنيـع التعريض ، وهجاه أقذع الهجاء ، متهما إياه في دينه ، وسيرته ، وسريرته ، وشخصه قائلا :

« هو رمد عين الدين ، وكمد نفـوس المهتديـن ، اشتهر سخفـا

(18) المرجع نفسه ص 235
(19) المرجع نفسه ص 240 ، نقـلا عن زبـدة الفكرة فى تاريخ الهجرة لـركن الـدين ببيرس
(20) يعتقد Dunlop ان الوزير الطبيب ابا العلاء ابن زهر هو الذى دبـر لـه هـذا التسمم انظـر (Remarks on the life and works of Ibn Bajja) تقرير القاه امام المؤتمر الاستشراقى فى القسطنطينية سنة 1951 ويـذهب ع. فروخ مذهبه (انظر ع. فـروخ : ابن باجـة ص 25) ونحن نستبعد هذا ، اذ ان المشهور هو ان ابا العلاء بن زهر توفى سنة 525 ، اذن قبل وفاة ابن باجـة بثمانى سنوات ، الا اذا سلمنا بان ابن باجـة توفى سنة 523 ، وهو قول ضعيف .
(21) راجع : ابن اصيبعة ، ج 3 ص 102

وجنونا ، وهجر مفروضا ومَسنونا ، فما يتشرع ولا يأخذ في غير الاضاليل... ناهيك من رجل (ما) أقر بباريه ومصوره... ورفض كتاب الله العلي الحكيم... وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الانسان نبات ونور ، حِمامهُ تمامُه ، واختطافه قطافه... » (22) .

وكما حقد عليه الخاقاني ، حقّد عليه تلميذ هذا ، عنينا ابن السّيد البطليوسي (المتوفى سنة 527 هـ) .

وليس من الغريب أن يحسده الاعداء فينعموا في الحسد ، ويكبرهُ المقرون بجلالة قدره في الادب والفكر ، فينوهوا بخصاله .

فلقد كان متميزا في العربيّة والادب ، حافظا للقرآن ، متقنا لصناعة الموسيقى ، وشاحا مطبوعا (23) جيد اللعب بالعود (24) حتى اعترف له عدوه الاكبر — الفتح بن خاقان — ببعض ذلك . (25) ؛ وكان طبيبا ، له في الطب باع ومهارة (26) : فمارس هذه الصناعة في الاندلس وفي فاس بالمغرب الاقصى ، بحذق وتوفيق أوغرا صدر حساده ؛ وتبحّر في العلوم الشرعيّة ، والذهنية والطبيعية (27) .

ونكاد نجزم بأنّ أبا بكر بن باجّة كان من أكبر مفكّري الاسلام في عصره . وإن لم ينزّل بعد المنزلة الحق في تاريخ الفلسفة ؛ فقد اتفقت

(22) ذكره المقرى ، ج 9 ص 231
(23) المقدمة . ج 4 . ص 1330
(24) طبقات . ج 3 . ص 100
(25) المقرى . ج 9 . ص 235
(26) طبقات . ج 3 . ص 100
(27) المرجع نفسه . ص 100

المراجع الامهات على جلالة قدره في الفلسفة : ولئن نحن شككنا في ذلك — حينا — عندما ينوّه به جمال الدين القفطي في « إخباره » أو شمس الدين ابن خلكان في « وفياته » أو موفق الدين بن أصيبعة في « عيون أنبائه » لما عهدنا عندهم من التنويه الذي كثيرا ما يجري على صيغ أفعل التفضيل ، فانا نكاد لا نشك فيما يقوله تلميذ فيلسوفنا ، أبو الحسن علي بن الامام ، وقد صحب ابن باجة واشتغل عليه دهرا ، وقيّد عنه مباشرة أقوالا ، ضمّنها في « مجموع » جاء فيه :

« هذا مجموع ما قيد من أقوال أبي بكر بن الصائغ رحمه الله في العلوم الفلسفيّة ، وكان في ثقابة الذهن ، ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ، ونادرة الفلك في زمانه ، فان هذه الكتب كانت متداولة بالاندلس ، من زمان الحَكَم مستجلبها... فما انتهج فيها للناظر قبله سبيل ، وما تقيد عنهم فيها إلا ضلالات وتبديل . وإنما انتهجتُ سبيل النظر في هذه العلوم بهذا الحبر...

ونهضت به فطرته الفائقة ولم يدع النظر والتّنتيج والتقييد لكل ما ارتسمت حقيقته في نفسه على أطوار أحواله ، وكيفما تصرّف به الزمن . » (28) .

بل نحن نُوقن بقيمة هذا الرجل عندما نقرأ ما يقوله عنه الفيلسوف ابن طفيل في تجردٍ واقتصادٍ واضحين ، إذ نزّه صاحب « حي بن يقظان » عن التألب على ابن باجة وعن التحيز له ، إذ هو « لم يلق شخصَه » فلم ينشأ بينهما بالتبعية تحاسدٌ وتباغض . ولا تعاشر وتعاطف . يقول ابن طفيل :

« ولم يكن فيهم (يعني أهل الاندلس الذين أقبلوا على الفلسفة) أثقب ذهنا ، ولا أصحُّ نظرا ولا أصدق رويّة من أبي بكر بن

(28) ذكره ابن ابى اصيبعة ، المرجع نفسه . ص 101

الصائغ . غير انه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته . وأكثر ما يوجد له من التآليف إنّما هي (...) مجزومة من أواخرها ككتابه « في النفس » و « تدبير المتوحد » وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة ؛ وأمّا كتبه الكاملة ، فهي كتب وجيزة ورسائل « مقتبسة » وقد صرح هو نفسه بذلك ، وذكر أنّ المعنى المقصود برهانه في « رسالة الاتصال » ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا إلاّ بعد عسر واستكراه شديد ، وأنّ ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الاكمل ، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها . فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل . ونحن لم نلقَ شخصه . » (29) .

لابْن باجّة إذن ثقافة واسعة ، أشْرَكت بين الادب والموسيقى ، وجمعت العلوم الشرعية والطب والفلسفة . وهمنا — في هذا المقام — أن نضبط بالخصوص ما خلفه من آثار فلسفية .

3 — آثاره الفلسفية

إذا ما اعتمدنا قول ابن طفيل (30) وما رواه ابن أصيبعة عن أبي الحسن ابن الامام صاحب المجموع (31) أمكن الاستنتاج أنّ أبا بكر بن باجة أقدم مؤلف أندلسي أقبل على درس الفلسفة المشائية (32) وعطف على فلسفة

(29) ابن طفيل . ص 62

(30) المرجع نفسه ، الصفحة ذاتها

(31) ابن اصيبعة ، ج 3 ، ص 102 — 103

(32) جدير بالذكر ان اول فيلسوف مسلم عرفته الاندلس هو ابن مسرة المتوفى سنة 931/318 وقد ضاعت كل آثاره ، وفيلسوف آخر تقدم ابن باجة فى الزمان بالاندلس ، هو اليهودى ابن جبرول (مات سنة 1070/462) ولكن العرب لم يعرفوا عن مذهبه شيئا (راجع (MUNK) ص 384)

المسلمين المشرقية بالنظر والرأي . لذلك رُمنا التعريف بـآثاره الفلسفية دون سواها لخروج هذه عن موضوع بحثنا .

الفيلسوف الشارح

شرح ابن باجه كتاب « السمع الطبيعي » لارسطو ، وعلق على بعض ما جاء في كتب له أخرى وهي « كتاب الكون والفساد » و « كتاب الحيوان » و « كتاب النبات » (33) ومنطقَ الفارابي (34) .

الفيلسوف المؤلف

ولابن باجّة مؤلفات أنشأها ، وأثبت فيها آراءه الفلسفية وهي : « قول في اتصال الانسان بالعقل الفعال » (35) و « رسالة الوداع » (36) و « رسالة في التشوق الطبيعي وماهيته » وكتاب « كلام في البرهان » ، وكتاب « كلام في الاسم والمسمّى » وكتاب « كلام في الاسطقسات » ، وكتاب « كلام في الفحص عن النفس النزوعية » ، ورسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه هو أبو

(33) طبقات . ج 3 . ص 103

(34) مخطوط بالاسكوريال

(35) نشر هذه الرسالة آسين بلاثيوس فى نصها العربى مع ترجمته الى الاسبانية ، سنة 1942 ، (مجلة الاندلس ج 7) ، ونشرها احمد فؤاد الاهوانى فى كتاب « تلخيص النفس لابن رشد » سنة 1950 ، وهى رسالة تبدو فيها نزعة افلاطونية تصوفية

(36) نشرها آسين بلاثيوس مع ترجمتها الى الاسبانية سنة 1943 ، وقد بعث بها ابن باجة الى تلميذه وصديقه ابى الحسن على بن الامام قبل رحيله عن المغرب الى المشرق ، مبينا له فيها اهمية التامل الفلسفى المؤدى الى الاتصال بالعقل الفعال ، عائبا على الغزالى ما ذهب اليه من وجوب الخلوة كى يصل الانسان الى العقل الاعلى

جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي بعد رحيله إلى مصر (37) و « كتاب النفس » ومجموعة « رسائل في العلوم الطبيعية والطب والفلسفة » (38) وأخيرا رسالته « تدبير المتوحد » التي هي أهم أثر – فيما يبدو – خلفه فيلسوف سرقسطة ، مبيّنا فيها فضل المعرفة والنظر الفلسفي وكيف هما يوصلان الانسان إلى « السعادة القصوى » (39) .

2 – رسالة تدبير المتوحد

1 – من الترجمة العبرية إلى النص العربي

لقد ذهب الظن بالباحثين ، قديما وحديثا إلى أن رسالة تدبير المتوحد قد ضاعت . أكّد مونك (MUNK) ذلك ؛ وسارتون (SARTON) وكَوَادْرِي QUADRI (40) .

ولعلّ الفيلسوف اليهودي ، موسى النربوني – الذي عاش في القرن الرابع عشر – م – هو أوّل من اعتنى بهذه الرسالة ، فنقلها إلى اللغة العبريّة ، ونشرها

(37) طبقات . ج 3 . ص 103 – ونحن لا نعلم عن فحوى هذه الرسالة شيئا . ونرجح انه لا يبعد عن مضمون الرسالة الموجهة الى تلميذه ابى الحسن ، لتشابه الدافع والظروف

(38) مخطوط بمكتبتي برلين واكسفورد

(39) ويبدو انه بقى من آثار ابن باجة مخطوطة ببرلين Staasbiblithek Zu Berlin. HSSNT 5060 تضم رسائل عديدة فى الفلسفة والطب والعلوم (G.A.L.I. 460) والمظنون انها فقدت (فروخ . ابن باجة . ص 34)
– ومخطوطة ببغداد – ملك السيد عبد الرزاق الحسنى – ويبدو انه فقدها (نفس المرجع والصفحة)
– ومخطوطة القاهرة (ضمن مجموع بدار الكتب المصرية رقم 290 اخلاق اكتشفه م. غ. ابوريدة) من ص 332 الى ص346 (انظر دى بور ص373)

(40) راجع : Munk, « melanges » ص 388
Sarton « History » ص 177
Quadri « La philosophie arabe »
ترجمة R. Huret باريس 1947 . ص 155

مع شرحه لقصّة حي بن يقظان ، وما كان من الفيلسوف مونك إلا أن عمد إلى هذه الترجمة ، فاقتبس منها فقرات ضافية ونشرها ضمن مجموعه في الفلسفة اليهودية والعربيّة (41) .

وهكذا فان مؤرخي الفلسفة القرْوسطية اعتمدُوا كُلّهم — من خلال ما اقتبسه مونك — النص العبري الذي ترجم إليه موسى النربوني رسالة تدبير المتوحد ، حتى أضحى من العسير الوقوف على فحوى فلسفة ابن باجة بدون تشويهها .

وفي سنة 1938 ، نشر أول نصّ عربي من مؤلفات ابن باجة . (42) ولكنه ليس من رسالة تدبير المتوحد .

وفي السنة نفسها ، ترجم الاستاذ محمد عبد الهادي أبو ريده كتاب دي بور ، الموسوم بتاريخ الفلسفة في الاسلام ، إلى اللغة العربية ، ونشر في حاشية حوالي 34 سطرا من الفصل الاول لرسالة « التدبير » . وهكذا ظهر لاول مرّة بعض هذا الكتاب في النص العربي . (43) .

وفي سنة 1945 ، نشر المستشرق م.د. دنلوب (Dunlop) نصّ رسالة تدبير المتوحد ، بالاعتماد على مخطوط منقوص يوجد بمكتبة أكسفورد (44) .

(41) نشر النص العبرى — الذى حرره موسى النربونى — لاول مرة سنة 1896 بعناية Herzog : « Die Abhandlung des Abu Bakr Ibn AS-Sayg Von Verhalten des Einsiedlen » (Beitr Zur Philosophie des Mittelaltèrs. vol. I. Berlin. 1896, this is Moses Ben Joshuas'S analysis)
راجع سارتون Sarton ص 183

(42) صفحتان نشرهما عمر فروخ فى مجلة « الامالى » — بيروت ، السنة الاولى العدد 11 فى 14 نوفمبر 1938 ، وهما مقتبسان من مخطوطة برلين فى الفلسفة والطب والعلوم

(43) هذا النص مقتبس من مخطوط القاهرة الذى اشرنا اليه آنفا

(44) راجع : J.A.R.S. افريل 1945 ص 61 — 81

وأخيرا ، في سنة 1946 نشرت الرسالة المعنية في نص أطول من النص الذي نشره « دنلوب » ، اعدّها آسين بلاثيوس بالاعتماد على مخطوط الاسكـريال ، وطبعت بعد موته بعناية معهد الدراسات العربيّة بمدريد وغرناطة ، مع ترجمتهـا إلى اللغة الاسبانية ومقدّمة لها بالاسبانية أيضا . (45) .

2 — « تدبير المتوحد » رسالة مجزومة

إن موسى النربونـي لم يحسن استعمال رسالة ابن باجة عندما اهتم بها في القـرن الرابـع عشر المسيحي ، إذ لم يترجمهـا ترجمة أمينـة ، بل ترجم منهـا صفحات اختارها كما شاء أحيانا ، وأحيانا أخرى لخص ، وكـثيرا ما لم يقف عند الترجمة والتلخيص ، فعمد إلى الشرح والتأويل حسب اتجاه قد يـرضى عنه هو ، ولـكـنه قد لاَ يرضـي الامانة العلمية ، وقد لا يـكـون من الاخلاص إلى فلسفة ابن باجّة في شـيء . بل نَحنُ قد لا نبعد إن قلنا إن النص الذي اثبته موسى النربونـي هذا قد اصطبـغ بصبغة العقلية اليهوديّة في أحيَان كـثيرة ، دون العقليـة الاسلامية ، وذلك باعتمـاده — في شرح بعض آراء ابن باجّـة — على التـوراة ، مقتبسا منها الادلّة والامثلة . (46) .

(45) El Regimen del Solitaro por AVEMPACE, Edicion y Traduccion de + Don Miguel Asin Palacios. (Madrid-Granada 1946).
وسنعتمد هذا النص فى بحثنا ، (لانه اكمل نص بين ايدينا) مع ما جـاء فيه من الاخطاء المطبعية الكثيرة ، ومع خلوه تماما من التعاليق والملاحظات التى ترافق عادة النصوص المنشورة لاول مرة . فهذا النص فى الحقيقة لم ينشر نشرا نقديا علميا . (وهو يقع فى 86 من القطع المتوسط)

(46) راجع مقدمة التدبير لاسين بلاثيوس ، ص 10

ولم يقف موسى النربوني عند هذا الحدّ ، بل هو أضاف إلى رسالة التدبير نصا ليس من تاليف ابن باجة ، أراده أن يكون خاتمة هذا الكتاب ، في حين أن فيلسوف سرقسطة ترك هذا التأليف مجزوما في آخره (47) .

ومَن اليسير اليوم — والرسالة بين أيدينا — ان نلاحظ أنها غير كاملة . وقد وقف المؤلف بالضبط قبل الخاتمة التي كنا نترقب أن يبيّن فيها (كيف) يكون الأتصال بين العقل الانساني والعقل الفعال ، لان هذا الاتحاد هو بالضبط غاية المتوحد ، حسب ابن باجّة .

لاحظ موسى النربوني انعدام هذه الخاتمة . فرام إتمام هذه الرسالة ، وعمد إلى أحد نصوص الفارابي فالصقه بها ، مقتبسا إياه من مقالة المعلم الثاني « في معاني العقل » . وإن الفارابي يبيّن فعلاً في هذه المقالة كيف تستحيل « المعقولات بالقوة » إلى « معقولات بالفعل » حتى يصبح « العقل الفعال » «عقلا مستفادا» ؛ ألصق موسى النربوني بعض مقالة الفارابي برسالة ابن باجة — في غير مَا إشارة — موهما أنه من أصل رسالة التدبير .

ولم يكن من الممكن لِمُونك Munk ، أن ينتبه في سنة 1859 إلى هذا الانتحال ، ونَص التدبير العربي لم يعثر عليه بعد . (48) ولم ينتبه مؤرخو الفلسفة القروسطية إلى هذا الانتحَال — وأنّى لهم ذلك ؟ — حتى سنة 1942 ،

(47) يقول ابن طفيل (ص 62) « واكثر ما يوجد له (ابن باجة) من التآليف **انما هي مجزومة من اواخرها** ككتابه « في النفس » و « تدبير المتوحد » ويثبت ابن الرشد هذا القول في نهاية رسالته على العقل الهيولاني قائلا : « واراد ابو بكر بن الصائغ ان يختط خطة لتدبير المتوحد في هذه الامة ، **ولكنه لم ينجزها** ... » (راجع تاريخ الفلسفة العربي) لحنا الفاخوري وخليل الجر الطبعة 3 . بيروت 1963 . ص 583 . حاشية 2)

(48) راجع مقدمة التدبير لبلاثيوس ، ص 11

عندما نشرت مجلة « الاندلس » (Andalus) على عمودين متقابلين ، الفقرات المنحولة المقتبسة من الفارابي والمنسوبة إلى ابن باجة من ناحية ، (وهو ما اثبته موسى النربوني في الترجمة العبريّة ، وما ترجمه مونك بعد ذلك إلى الفرنسيّة) ، ونصّ الفارابي من ناحية أخرى . فاذا النصان متحدان بالحرف الواحد (49) .

وهكذا ، فان رسالة تدبير المتوحد التي ظن مونك (Munk) في سنة 1859 أنها اندثرت ، وتبعه في ذلك سارتون (Sarton) سنة 1931 ، بل حتى في سنة 1947 عندما أعيد طبع كتابه (50) وحتى حنا الفاخوري وخليل الجر في سنة 1963 ! (51) موجودة اليوم بين أيدينا ، ولكنها مجزومة ، ما في ذلك شك ، إذ أنها تقف في مخطوط الاسكوريال (وهو اطول مخطوط موجود) بالضبط حيث يبدأ النص الذي هو قطعا من تأليف أبي نصر الفارابي (52) .

إذن سنحاول التعريف بفلسفة ابن باجة بالاعتماد على هذه الرسالة التي تركها منقوصة ، مقتنعين بأنه — وإن علل لـميّة الاتصال — لم يوضح كيفيته .

ولعله من الامكان أن نصل إلى استشفاف هذه الكيفية ، إن نحن اعتمدنا بعض مؤلفات فيلسوف سرقسطة الاخرى وهكذا إن قضي بأن لا نَعرف حلّ ابن باجة لهذه المعضلة الفلسفية ، فلعله من غير العسير ضبط نوع هذا الحل ونزعة ابن باجة فيه .

المنجي الشملي

(يتبع)

---

(49) راجع مجلة « الاندلس » (Andalus) المج 7 — القسم 2 ، ص 293 — 294

(50) راجع سارتون : « History » ج 2 ص 117 و 183 — ج 3 ص 608

(51) راجع ما يقولـه المؤلفان في « تاريخ الفلسفة » ص 582 — 583 : « واشهر كتبه الفلسفية ما ذكره ابن طفيل اعنى .... « رسالة الوداع » .... ورسالة « تدبير المتوحد » وقد فقدت ولم يبق منها الا نتف .... »

(52) راجع مقدمة التدبير لبلاثيوس . ص 11

« المكتبة الافريقية »

سلسلة :

من نصوص ودراسات فى تاريخ افريقية والمغرب

يعدها : **فرحات الدشراوى**

I

قضية الداعى أبى الخير الشيعى المصلوب
بقرطبة فى عهد الحكم المستنصر بالله

مسألة الزنديق أبى الخير لعنه الله
وصفة الشهادات عليه (1)

1 — شهد عنه قاسم بن محمد صاحب أحكام الشرطة بقرطبة وقاضي كورة استجلّة وقبرة محمد بن عبد الله التجيبي أنه سمع أبا الخير يسب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وغيرهما وسمعه أيضا يقول إن علي بن أبي طالب كان أحق بالنبوة من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الخروج على الايمة رضي الله عنهم وسمعه أيضا يقول إن الخمر حلال وأنه أتاه الى السوق فقال له محمد بن عبد الله إن السلطان ظلّ الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم وقال أبو الخير ما كان أملي من الدنيا الا خمسة آلاف فارس أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها وأقوم بدعوة أبي تميم وكذلك يكون فقال له محمد بن عبد الله ليس أنت من الاسلام في شيء لان النبي عليه السلام يقول من أظهر علينا السلاح فليس منا ودفعه عن نفسه .

(1) هذا النص من كتاب « الاعلام بنوازل الاحكام وفقر من سير القضاة والحكام » لابن سهل اخرجته من مخطوط الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب الذى سمح لى بنسخه فشكرا له على ما غمرنى به من فضله وعطفه .
راجع دراسة لهذا النص نشرتها باللغة الفرنسية فى مجلة « الاندلس » الاسبانية سنة 1958 .

2 ــ وشهد محمد بن أيوب بن سليمان بن ربيع أنه سمع أبا الخير يقول انما الناس كالعشب رطب ويابس ثم لا حساب عليهم ولا عقاب فقال له محمد بن أيوب فأين قول الله عزّ وجلّ فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون ، وقوله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير ، فقال له أبو الخير بعض القرآن خرافة وبعضه لا شيء وانما السيف يضم الناس إلى الإقرار بهذا ؛ وسمعه يطعن على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ويطعن في خلافة أمير المؤمنين الحكم أعزّه الله ويقول لو كانت تسعة أسياف لكنت العاشر وعدد عليه شرب الخمر فقال له أبو الخير هو أجل من الماء للشرب والطهور .

3 ــ وشهد سهل بن سعيد للّخمي أنه سمع أبا الخير يقول اما القرآن النصف الاول فلا بئس به وأما الثاني فخرافات لو شئت لقلت قرآنا خيرا منه اذ قال والعاديات ضبحا هلا قال والسابحات سبحا تعالى الله عمّا قال علوا كبيرا . وسمعه قبل ذلك يقول انه رُوي عن بعض الصالحين لا تعبد الله رجاء ما عنده فتكون كالاجير الذي يخدم ليأخذ ولا تعبده لخوف عقابه فتكون كالعبد السوء الذي لا يخدم الا لخوف مولاه ولكن اعبده لما هو أهله ثم عطف فقال : ما هو أهله ! مستهزيا به عزّ ذكره وتعالى .

4 ــ وشهد حسان بن محل أنه سمع أبا الخير يقول الخمر حلال في كتاب الله عز وجلّ ويحتج بقوله تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فمن قال غير هذا فهو كاذب ويعرفه تاركا الصلوات الخمس في المساجد وتاركا لحضور الجمعة وشاربا للخمر محللا لها وسمعه أيضا يقول في الملائكة : إنهم بنات الله .

5 ــ وشهد علي بن عبد الله الحجري أنه سأل أبا الخير عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها فقال دعها فعليها لعنة الله لقد كانت من شدة احتراقها

وافصح من اقبـح من هذا القـول فيهـا وفي رسول الله حتى يصـلي الصبـح في الضحى . واجتمع به في مقبرة معه فقال له شهدت علي قال نعم فقال له أبـو الخير مستهينا بشهادته وشهادة من شهـد عليـه اسمع ما أشهـدك به على نفسي انـي أزنى وألوط وأشرب واسمع العود ثم قال له وقفنـي على هذه الشهادة متـى أحببت فانـي أخذت بهذا عن نفسـي كما أخبرتك .

6 ــ وشهد أحمد بن سعيد بن بشر الاموي أنه يعرف أبا الخير هذا مـن أهل الطعن على السنن وأهلها كادحا فيها لا يرى إمامة أحد من أيمة المسلميـن هازلا بـكـتاب الله عز وجل طاعنا فيه .

7 ــ وشهد سليمان بن منبّه بن عبد الملك أنه يعرف أبا الخير من أهـل المروق والتهتّر في الدين وسمعه يقول لله درّ قرشي عفّر هذه الوجوه المنتثة (1) بالتراب وسمعه أيضا يمدح الخمر ويقول لقد ظلم محمد في تحريمها ولقد أحل أشياء كانت الخمر خيرا منها .

8 ــ وسمعه محمد بن عمر بن محمد بن عذرة في انصرافه من تشييـع خال له خرج الى الحج ولقيه ببلاط مغيث وسأله من أين إقباله فاعلمه فقال أبو الخير ما أحمق الذين يتعبون أبدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصدون حجارة صمّاء .

9 ــ وشهد مسعود بن عمر بن خيار الانصاري أنه سمع أبا الخير والناس يصلون وهو يقول القوم يرفعون أستاهم ويخفضـون رؤوسهم بالعجميـة (؟) وقلت له سبحان الله فقال لي يا أبا القاسم لا تـكـن من الغوغاد فلو أن غيـرك سمعنـي لنشبت وسمعه يتأول حديث النبـي عليه السلام في السواك يقول في هذا

(1) نتث كنتش ونتف .

الحديث معنيان أحدهما ظاهر والآخر باطن فأما الظاهر فهو سواك الفم والثاني فيما أستر الله يعني الفاحشة .

10 — وشهد سليمان بن قاسم قال انه يعرف أبا الخير تاركا للصلوات الخمس في المساجد تاركا لحضور الجمعة شاربا للخمر محللا لها .

11 — وشهد محمد بن يحيى الخضرمي أنه سمع أبا الخير يقول في النبي صلى الله عليه وسلم إن عليا كان أحقّ بالنبوة منه وإن محمدا غصبه اياها وان محاربة بني أمية احق من محاربة الشرك .

12 — وشهد عبد الله بن بشر القشيري أنه سمع أبا الخير هذا وهو يتكلم مع نصراني في لحم الخنزير ويسأل النصراني أن يأتيه به فقال وكيف تأكله فقال له أبو الخير لست على دين محمد ولا اعتقده وسمعه يسمي الجامع دار البقر ويحل الخمر .

13 — وشهد نجدة بن السطيحي الاموي أنه سمع أبا الخير هذا يسب الله تعالى بكلام كثير أعظم نجدة أن يتكلم به .

14 — وشهد عمارة بن الفهري أنه يعرف أبا الخير هذا معطّلا للكتاب والسنة مستحلا للخمر .

15 — وشهد هارون بن محمد المتطبب أنه سمع أبا الخير هذا يهزأ بديانة الاسلام وسمعه يقول لمحمد بن عبد العزيز لولا حالة تلتزمها يريد الشراب لنزل عليك الوحي .

16 — وشهد أصبغ بن عيسى العيني أنه سمع أبا الخير هذا يقول لو استطعت أن أقلع الكعبة واترك المسلمين بلا قبلة لفعلت .

17 — وشهد محمد بن احمد بن الحداد القروي أنه يعرف أبا الخير هذا مستهزئا بديانة الاسلام يزري على سنن هذه الامة وخلفهم ويقول ليس في جملة الصحابة الا ستة عليا وعمارا والمقداد وانسيت الثلاثة انهم على ضلال وباطل وانهم ارشدوا وعادوا كفارا وجميع من تبعهم من جملة المسلمين هم معهم على ضلال وباطل ورأيت له كتابا جاوز منه حدود الاسلام الى معاني التعطيل وذاكرته ما بلغني عنه من ذلك وأشباحه فاقر بجميعه ثم أظهر بعد ذلك النسك في أطمار صوف يطلب الصدقة ولم يمض به عام أو نحوه حتى اتصل بي عنه شرب الخمر والبنيان العظيم والنفقات وافعال الفساق فاجتمعت به في طريق فقلت له أبا الخير ما هذا الذي أنت فيه وبلغني عنك أين التوبة وما كنت تظهر من الزهد فقال هذا ضلال ومحال وأخبار المجانين فقلت له أين ما كنت تظهر من النسك والزهد والتوبة فقال انما تبت تقية وخوفا ولو أمنت لناظرت على أكثر ممّا كنت قلت ولأتمت الحجة في ذلك فقلت له ليست هذه ديانة ولا فعل من يؤمن ببعث ولا حساب فقال لي : هذه الاخبار الباردة وهذا المحال أخرجك من بلدك فقلت له أخرجني الهروب من الكفر وطلب السنن من أهل السنة فقال لي الذين خرجت عنهم كانوا أهل الحق والسنة لا الذين أنت معهم لان أولائك اهل السبت ولا ينجيك الفرار منهم .

18 — وشهد محمد بن نجاح الاموي أنه سمع أبا الخير يقول الخمر حلال في كتاب الله ويحتج تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا فمن قال بغير هذا فهو كاذب .

19 — وشهد محمد بن حفص أنه سمع أبا الخير يقول بتحليل الخمر .

20 — وشهد عبد الله بن محمد الاموي أنه سمع أبا الخير يسب أبا بكر وعمر ولا يرى خلافة من ولاه الله أمرنا .

21 — وشهد عبد الرحمان بن سعيد الانصاري أنه سمع أبا الخير يسب أبا بكر وعمر وأصحابهما وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ويرميها بالبهتان ولما قدم عبد الله بن محمد هذا من المشرق سأله أبو الخير من أكثر بالمشرق العلوية أو العثمانية أو البكرية فقال له لقد ظهر الآن العلويون فقال له أبو الخير هذا الحق كأنك ترى الألويّة خارجة من داري .

22 — وشهد أبو حفص الرعيني أنه سمع أبا الخير يقول لو كانت تسعة أسياف لكان سيفي العاشر ثم أضع سيفي من باب القنطرة فلا تبقي احدا .

23 — وشهد ابراهيم بن علي الرعيني أنه سمع أبا الخير يحلُّ الكفر واللّواط .

24 — وشهد إسماعيل بن حفص أنه يعرف أبا الخير هذا معطلا للمساجد تاركا لصلاة الجمعة لا يرى شهودها محلّلا للخمر كثير الوقوع في الخلافة المباركة أدامها الله وأنه خطوب رجل من أحل الحرم فسمعه اسماعيل يقول اللهم اقطعها من ايام فقال له اسماعيل لم ذا فقال للذي اعرف والله لو قام تسعة أسياف لكان سيفي العاشر .

25 — وشهد علي بن حفص الرغيني بمثل ذلك .

26 — وشهد أحمد بن عبد الله بن محمد بن بزيع أنه سمع أبا الخير من أهل الاستخفاف بالديانة والتلشية لها .

27 — وشهد يوسف بن سليمان بن داود الاموي أنه يعرف أبا الخير هذا وضع كتابا رد فيه على أهل السنة يلعنها في كتابه وأقر عنده بالكتاب .

28 — وشهد (عنده) عثمان بن مادة بن عثمان أنه سمع أبا الخير هذا يقول : هذا العالم ليس هم على شيء يحل شرب الخمر والطهور بها وينتقص الخلافة المكرمة .

29 — وشهد عبد الرحمان بن عمار أنه يعرف أبا الخير هذا من أهل البدع والفساد والطعن على أيمة المسلمين وخلفائهم .

30 — وشهد أصبغ بن عبد العزيز أنه اجتمع بأبن الخير هذا (بسبتة) فسمعه يقول بانكار الشفاعة وتخليد المذنبين من الموحدين في النار .

31 — وشهد عبد الله بن حزب الله السكسكي أنه يعرف أبا الخير هذا بشنتمرين وسمع رجلا استفتاه في جارية عنده رهينة ان كان يحل له وطيها فقال وطيها حلال فكذبته .

32 — وشهد أحمد بن محمد بن حسان أنه اجتمع بأبي الخير هذا بمقبرة قريش فسمعه يقول أنا أعلم كيل البحار ووزن الجبال وعدد الذر .

33 — وشهد يعيش بن داود بن صابه الانصاري أنه عرف أبا الخير هذا يسب أهل السنة والجماعة .

34 — وشهد سعيد بن عاصم الخولاني أنه يعرف أبا الخير هذا من أهل البدع محتجا على أهل السنة بالبدع .

35 — وشهد احمد بن محمد الاموى أنه سمع ابا الخير هذا يطعن في الدين ويحرف السنن وبعد من نفسه أن يدخل القصر عروسا يريد بذلك أن يأتي بجماعة تدخله القصر .

36 — وشهد مسعود بن عبد الله الاموي انه سمع أبا الخير هذا يحل الخمر ويقول اذا مت فاغسلوني بها وكان بلغه قبل ذلك أنه يشرب الخمر مأنكر ذلك ولم يصدقه فركب مع أصحاب له ليقف على الحقيقة من امره فوجده بقرية (طرسيل) سكران وقال له حينئذ هذه المقالة .

37 — وشهد معاوية بن مسلمة السبائي أنه سمع أبا الخير هذا يقول بمذاهب المشارقة عليهم لعنة الله وغضبه ويذهب مذهبهم وان الملحد الشيعي أمير المؤمنين وفخر عليه أن جراية الشيعي عليه وعلى اصحابه جارية .

38 — وشهد محمد بن عبد الله بن محمد بن بزيع الاموي أنه سمع أبا الخير هذا يقر بشرب الخمر واللّواط ويقع في الخلافة أعلاها الله ويسب الحكام.

39 — وشهد محمد بن احمد البهراني أنه سمع أبا الخير هذا يقول بتخليد المذنبين من المسلمين في النار ويعتقد هذا ويرى الخروج على الامام .

40 — وشهد ناقد بن عباس أنه سمع أبا الخير هذا يقول كسر العظام ككسر الحجارة وكان ناقد قد نبش قبر قريب له فدخل في القبر فأخرج منه العظام وأعظم كسرها فقال أبو الخير عند ذلك ما تقدم فقال له ناقد واين حديث عائشة فقال عائشة مثل أمّك .

41 — وشهد رشيد بن بخت أنه سمع أبا الخير هذا في بعض المجالس وقد دارت بينهما مناظرة فقال له أبو الخير اين تلتزم في السوق وما تجرك فذكر له

رشيد موضعه ومتجره فقال له أبو الخير للسلطان اليكم سبيل فقال له رشيد بـلى فقال له أبو الخير أنت ممـن يقرأ القرآن فقال له بلى فقال له ألم تسمع الله تعالى يقول ولا تركـنوا الى الذين ظلموا فتمسكـم النار فرضيت بأن تـكـون من أهـل النار فردّ عليه رشيد في ذلك بما استطاع من الرد فقال له أبو الخير ليس هو من الايمة الذين تحق امامتهم ولا معاملتهم ولو استطعت محاربتهم لجاهرتهم وكـان جهادهم عندي أفضل من جهاد العدو وكـذلك فقهاء هذا الزمان بهذه الصفـة عنــــدي .

42 ــ وشهد (بدر مَوْلى احمد بن خيار) أنه سمع أبا الخير اذا خرج من الطبق يقول وقد سمع صياح صبيان ماكـنت اشتهـي إلاّ ان اخرج بسيفـي هذا السيف كان معه فاقتلهم صغارهم وكـبارهم الى باب القنطرة وترجع بدر على ما كان من جوهر من أهل فاس فقال أبو الخير اما تقرأ القرآن : « إذا جاء نصر الله والفتـح » فهذا نصر الله قد جاء الى المغرب والفتح ياتـي بعده .

43 ــ وشهد خيار بن عبيد أنه سمع أبا الخير يقول في سوق البزازين وقد تزاحم الناس ما يستحق هذا الخلق الا السيف .

44 ــ وشهد عبد الله بن عمران سدي أنه سمع أبا الخير يحلُّ الخمر وقال لقاسم بن محمد « صاحب الشرطـة اسحـاق بن منذر بن السليـم : « تَثَبَّتْ من أنار أبـي الخير هذا فانه أبو الشر فاتق الله فيه وأنا شريـكـك في ترابـه وان شئت ان تفردنـي بالثواب فافعل فإنّي أتولى صلبه بيدي وإثمه في عنقـي » وكانت شهادة جميـع الشهود المسمين في هذا الـكتاب على عين أبـي الخير وبمحضره وعرفوه حين شهدوا عليه بما ذكـر عنهم من شهادتهم في هذا الـكـتاب فقبـل

قاسم بن محمد صاحب الشرطة شهادة ثمانية عشر شاهدا من هؤلاء الشهود وأجازها لمعرفته بهم وثبت بهم عنده ما شهدوا به من ذلك واستظهر بسائرهم وشاور من حضره من أهل العلم في بيت الوزارة — بعهد أمير المؤمنين الحكم أعزه الله بن أمير المؤمنين عبد الرحمان رحمه الله بذلك إليهم وإليه — فيما ذكر ثبوته عنده على أبي الخير في هذا الكتاب بعد أن اعلمهم بقبوله لمن قبل من الشهداء واستظهاره بمن استظهر منهم فقال الفقهاء (قاضي الجماعة منذر بن سعيد) (وإسحاق بن ابراهيم) (وصاحب صلاة الجماعة أحمد بن مطرّف) وغيرهم نرى والله الموفق للصواب أنه ملحد كافر قد وجب قتله بدون ما ثبت اليه من غير ان يعذر اليه فيمن قبلت بعد أن تنهي ذلك الى أمير المؤمنين اعزه الله . وأشار عليه بعض من حضر من أهل العلم بان يعذر اليه في ذلك فأخذ الناظر في أمره (قاسم بن محمد) يقول من رأى أن يقتل بغير إعذار اليه اذ كان ذلك رأيه أيضا ومذهبه فيه وأنهى قاسم بن محمد الى أمير المؤمنين اعزه الله جميع ما نظر به من ذلك فرأى امير المؤمنين اصلحه الله أن الحق والصواب في قول من أشار بقتله بلا إعذار لما استفاض من الحاد هذا الملحد وانتشار ذلك عنه فامضى ذلك فيه وأمر بصلبه غضبا لله عز وجل ولكتابه العزيز ولرسوله صلى الله عليه وسلم ليكون تشديدا لمن ذهب الى مذاهبه أو ثبت عليه سبب من اسبابه التي ثبتت على أبي الشّر هذا لعنه الله وكتب امير المؤمنين اعزه الله الى (الوزير عيسى بن فطيس) كتابا « باسم الله الرحمان الرحيم ، يؤخذ برأي القاضي واسحاق وصاحب الصلاة فجزاهم الله عن الدين والذب عن السنة خيرا وقد صرفت الوثيقة لتكون في البيت ورأيت هذا الامر قد كثر وكان ممنوعا مطروحا فتقدم الى القاضي والحكام بالاخذ على أيدي الناس في هذا فمن خالف مذهب مالك بن أنس رحمه الله

بالفتوى أو غيره وبلغني خبره أنزلت به من النكال ما يستحق وجعلته سدادا وقد اختبرت فيما رأيت في الكتب أن مذهب مالك واصحابه أفضل المذاهب ولم أر في اصحابه ولا فيمن تقلّد مذهبه غير السنة والجماعة فليتمسك بهذا ففيه النجاة ان شاء الله عز وجلّ . » ولما نفذ عهد أمير المؤمنين اعزه الله بصلب أبي الشر هذا وظهر من سرور العامة والخاصة بذلك ما لم يظهر فيهم الا يوم اصبحوا الى خلافته اعلاها الله كتب اليه (اسحاق بن ابراهيم) :

« بسم الله الرحمان الرحيم سلام على أمير المؤمنين وإمام المسلمين ورحمة الله وبركاته والحمد لله الذي لا يزال أمير المؤمنين سيدي وسيد المسلمين يمدُّه الله بتوفيقه ويشد بصايره في الخير في تأييده والذي من عليه بأن كان أول دم أمر بسفكه في خلافته امتعاضا لله عز وجل ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم وغضبا على من استخف بعظمته واتخذ آياته هزوا وذلك من فضل الله عز وجل على أمير المؤمنين وعلى آبائه المهتدين رضي الله عنهم الذين قفا آثارهم وسار سبيلهم في غضبهم لله عن ذكره وشدة انتقامهم له من الملحدين والمارقين والمبتدعين فلو كان أمير المؤمنين سيدي بمرأى ومسمع من اجتماع رعيته بالامس عند ورود البشير عليهم بما أمر به في الملحد أبي الشر من استيصاله وقطع شافته وسرورهم بذلك واستهلال جميعهم بالدعاء والرغبة الى الله عزّ وجل في اعزازه ونصره وطول بقائه مع شكرهم له عزّ وجلّ على ما اختصهم به وفضلهم على جميع اهل الارض من خلافته واطلعهم عليه بما كانت آمالهم قايمة فيه وراجية له لتضاعف سروره منه اعزه الله بالحسنة التي تقرب الى الله عز وجل بها في هذا الملحد ولتبين له أن ليس في المسلمين رعية أرغب في إحياء السنة واتباعها والحب لأيامها والشفقة عليه والكلف به من رعيته فلقد رأيت الناس أبقى الله أمير

المؤمنين سيدي يتلاقون بالتهاني بما اطلعهم الله عز وجل عليه من باطن أمير المؤمنين امامهم في الغضب لله عز وجل ولكتابه العزيز ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللسلف الصالح من صحابته رضي الله عنهم ولشدة بطشه وعزيمته في الانتقام ممن طعن في الدين ما عظم به سروري لامير المؤمنين سيدي ولجماعة المسلمين لعلمي بأنها سيتزودها الركبان الى جميع أمصار المسلمين وبلدانهم على أفضل مما قد أطلع الله عليه رعية أمير المؤمنين من نكته واجتهاده مما لو أنه رام أن يجمع بقوة سلطانه على ما اجتمعت له عليه من ذاتها بما بلغته طاقته إلا الى أقل من ذلك ولكن الله عز وجل أوحى اليها بما أوحى فتحقق عندها ما لا يتحقق إلا من عنده فيما يظهره عليهم من غيبه فتبارك الله رب العالمين ثم شفع أمير المؤمنين سيدي ابقاه الله ما كان تقدم من عهده في هذا الملحد بما جاوب به (الوزير عيسى بن فطيس) فيما انهاه اليه مما اعترض به من اعترض في الاعذار إليه فيما ثبت عليه فبادرت الى انتساخ ذلك الجواب وأذعته فيمن حضر من الطلاب فكان سرورهم به كسرورنا وسرورهم بما غدونا عليه من الفرح غداة خلافته بل أكثر من ذلك ثم خرجت بالنسخة الى من حضرني في المسجد وقد احتفل من الداعين والمبتهلين والراغبين فقرأته عليهم فكلهم دعا بما لا أشك ان الله تعالى لا يضيعه لهم في أمير المؤمنين وامامهم وكهفهم وحايطهم ثم تبادر الناس الى نسخه فانتشر فيهم كأسرع شيء فلم تزل طايفة بعد طايفة تنسخه الى المساء حتى كأن الله عز وجل انما استخلفه عليهم تلك الساعة فهنيئا لامير المؤمنين سيدي ما من الله به عليه وجمعه له من طاعته لربه ورسوخ محبته في قلوب رعيته واستنامتها إلى امامته وبعد أبقى الله أمير المؤمنين سيدي فاني لم أشك في هذا الملحد «واصحابه» من أن الله عز وجل منتقم منهم بك وعلى يديك من الهمك

الى التذلل له ممـا تسميت به من استنصارك به فـكـفى بهذا تسليما وخضوعا لعزته ثم هو وأصحـابه في فضض لعنة الله وخزيتـه التـي أوعدهم بها في كـتابه وعلى لسان رسوله فيما أوعدهم به من كـتابه العزيز قوله تبارك وتعالى اسمه (ان الذيـن يؤذو ن الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذو ن المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكـتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) وهو منجز لهم ذلك عاجلا وآجلا وممـا اوعدهم به على لسان رسوله قوله صلى الله عليه وسلم (دعوا اصحابـي لا تتخذوهم غرضا فمن أحبهم فبحبـي أحبهم ومن أبغضهم فببغضـي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانـي ومن آذانـي فقد آذى الله فيوشك أن يأخذه الله) فمن كان (ابقى الله أمير المؤمنين سيّدي) الله عز وجل وكـتابه ورسوله يطالبـه فهو في فضض لعنته والـكـتاب والرسول خصماؤه فاين يفرُّ من سمائه وأرضه لم يمنعنـي أبقى الله أمير المؤمنين أن أكـون مـكـان كـتابـي هذا مهنيا له ومشافها بدعائـي وابتهالي إلا معرفتـي برأفته ورغبته في الرفق بـي والصون لي من ريـح هذا اليوم وبرده وما نزل من الماء فيه فشكـر الله له ما (ا)عجزت عنه من قضاء حقوقه وكـفاه عنـي بأفضل ما يحفظه منـي امين امين والسلام على أمير المؤمنين سيدي ورحمـــة الله » .

فأجابه أمير المؤمنين ابقاه الله في ظهر كـتابه جوابا نسخته : « الى اسحاق ابن ابراهيم الفقيه قرأنا كـتابك وفهمناه والحمـد لله الموفق لنا الذي أجـرى على أيدينا وفي ايامنا هذه المـكـرمة وجازاك الله عن الذب عن الدين خيرا فلقد وقع منـي أفضل موقع وانما كان ما ألقى من الـكـلام نزعة من نزعات الشيطان والقية ألقاهـا على السنتهم ولولا البـدار لدارت أمـور وأمور والحمد لله الذي الهمنا الى البدار وقطع على ايدينا طرفا من الـكـفار وقد بلغنـي أن جماعة على مذهبه وامرت

الحكام بالتشدد عليهم واخافتهم وبلغني أن قوما يفتون بغير مذهب مالك بن انس وأنهم يرخصون في الطلاق وغيره بما كثر من الفتوى وكل من زاغ عن مذهب مالك فانه ممن زين على قلبه وزين له سوء عمله فقد نظرت في أقاويل الفقهاء ورأيت ما صنف من اخبارهم الى يومنا هذا فلم أر مذهبا أنقى ولا أبعد من الزيغ من مذهبه وجل من يعتقد مذهبا من مذاهب الفقهاء فان فيهم الجهمي والرافضي والخارجي إلا مذهب مالك فاني ما سمعت أن أحدا تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع فالاستمساك به نجاة ان شاء الله عز وجل . وقد احسنت في توقفك وما أحب الى ما أحاطك الله به واصلح من حالك فقد قلت لمن حضر من يوم السبت بعد خروجك لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ فكثر الله مثله فهذه بصيرتي فيك فاعلمه والسلام عليك » .

ولما ورد جواب أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمان اعزه الله هذا على (اسحاق بن ابراهيم) اجتمع اليه طلبة العلم فرغبوا اليه في انتساخه فأباح لهم ذلك وسألوه أن يشرح لهم أصل الفتيا المذكورة عنه وعمن قال مثل قوله في هذا الملحد فقال اسحاق بن ابراهيم : لم تجر بيني وبين أصحابي فيما سألتم عند مذاكرة أكثر من اجتماعنا على وجوب قتله بغير اعذار إذ ببعض ما ثبت عليه كان يجب قتله بلا إعذار فكيف بما اجتمع عليه في الشهادات المشهود بها فيه من ضروب الكفر التي لم اسمع باجتماعها في أحد ممّن شهد عليه بالإلحاد وعرف به ونسب اليه شيء منه قديما ولا حديثا وكل قد قاد أصلا اعتمد عليه احتمل عليه فمن أصلي في إسقاط الإعذار اليه فيما تقدم ذكره عنه الاحتمال من ذلك على مذهب مالك رضي الله عنه في قطع الاعذار عمّن استفاضت عليه الشهادات في الظلم وعلى مذهبه في السلابة والمغيرين وأشباههم إذا شهد عليه

المسلوبون والمنتهبون بأن تقبل شهادتهم عليه إذا كانوا من أهل القبول وفي قبولها عليهم سفك دمائهم بما يحكم به في المحاربين إذا كان الشهود جماعة وقد وقف مالك على الجماعة كم هي فقال أربعة فما زاد وفي الرجل يتعلق بالرجل وجرحه يدمي فيصدق عليه وفي البكر تتعلّق بالرجل وهي تدمي فتصدق عليه وفي التي تتعلّق بالرجل في المكان الخالي وقد فضحت نفسها باصابته لها فتصدّق عليه بفضيحة نفسها وفي الذي وجده رضي الله عنه أحد الحكام وهو يضرب بدعوى صبي قد تعلق به وهو يدمي فصدقه الحاكم فيما ادعاه عليه من اصابته له فلم يزل يضرب ومالك جالس عنده حتى ضرب ثلاث مائة سوط وهو ساكت لا ينكر ذلك الى ما قد كان تقدم له قبل نزوله عليه من الضرب . وقد بلغني أنه انتهى الضرب به الى ست مائة سوطا . وفي أهل حصن من العدو يأتون مسلمين رجالا ونساء حوامل وغير حوامل فيصدقون في انسابهم ويتوارثون بذلك واذا كانوا جماعة لهم عدد إلا ان يكونوا يسيرا السبعة والثمانية . قال ابن القاسم والعشرون عندي جماعة دون عذر فأين الإعذار من هؤلاء كلهم فاذا كان مالك يرى هذا في أهل الظلم للناس والسلابين والهجامين والمنتهبين وممن يلحد بدار الاسلام من المشركين فالظالم لله عز وجل ولكتابه العزيز ولرسوله صلى الله عليه وسلم أحق أن يقطع عنه الإعذار فيما ثبت عليه من الكفر والإلحاد والتكذيب لكتابه ولرسوله لو لم يستفض عند كل ما استفاض فكيف بما ثبت عليه وانتشر عنه بمن قد شهد في « الكتاب » الذي انعقدت عليه به الشهادات وبمن لم يشهد فيه ولو لم يستفض ذلك عنه إلا ممن شهد عليه في ذلك الكتاب خاصة لعظمت الاستفاضة بهم عندي ولقبلت جميعهم اذ هم أو جلّهم من حملة القرآن وطلبة العلم وحجاج ومجاهدون وعمار المساجد فكيف

وليس في الاندلس بلد إلا وهو يغلي بالشهادات عليه بما أذاع فيهم من هذا الالحاد فهذه سبيلي فيه وفي امثاله التي اقول بها وادعواليها على بصيرة مني فيها واذ وقعت على جميع ما انعقد عليه من الشهادات فوجدتها تشتمل على الكفر بالله والتكذيب لكتابه ورسوله مع الطعن على الايمة المهديين والسلف الصالح من المؤمنين ومع ما كان يدعو به ويظهر العزيمة فيه من الخروج على إمام المسلمين اعزه الله وحمل السيف على رعيته المسلمين وسبي ذراريهم واحالة الملحدين امثاله عليهم واحلاله في كثير منها ما حرم الله عز وجل في تنزيله وعلى لسان رسوله من الفواحش حاشى نبذتين أو ثلاث من مذاهب المعتزلة ومثلها من مذاهب المعتزلة ومثلها من مذاهب الرافضة اللعينة والشيعة المخزية ومن تحرج في تعجيل روحه الى النار فاني متقرب الى الله عز وجل باسقاط التوسعة عليه في طلب المخارج له بالإعذار والاسراع به الى ما أوعد الله عز وجل به الذين يلحدون في آياته لو لم اجد لمالك اصلا فيما تقدم ذكره عنه في هذا الكتاب لنزعت الى موطئه في الحديث المأثور منه عن النبي صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر وهو أم القضايا ولا اعذار فيه ولا اقالة من حجة ولا من كلمة والى كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى أبي عبيدة بن الجراح وابي موسى الاشعري وهما ايضا ملاذ الحكام والاحكام بعد حديث النبي صلى الله عليه وسلم وليس فيهما إعذار ولا إقالة من حجة ولا من كلمة عند قوله (اضرب لطالب الحق اجلا ينتهى اليه) لم يقل اضرب لمن ثبت عليه حق اجلا ينتهي اليه غير ان الاعذار فيما يتحاكم الناس فيه من غير أسباب الدِّيانات استحسان من أيمتنا وأنا على اتباعهم فيه والاخذ به على بصيرة مستحكمة فيما أوجبوا الإعذار فيه من الحقوق والتزام التسليم لما استحسنوه اذ هم القدوة والمعداة فاما في الإلحاد والزندقة

وتكذيب القرآن والرسول وفي اقامة الحدود فلم اسمع به ولم اره لاحد ممن وصل الينا علمه في مقبول الشهادات فأخذ به وقد تدور عند حكامنا شهادات لا اعذار فيها بلا اختلاف بين من أدركنا ولا بين من مضى من مشايخنا منها ما تنعقد في مجالس الحكام من المقالات والإقرارات والإنكارات بشهادات من يحضرنا عندهم من المقبولين في الدماء والفروج والانساب والنكاحات والطلاقات والاموال وغيرها من صنوف الحقوق لكنّها بلا إعذار في شيء من هذه الشهادات باجماع ممّن مضى وممّن بقي ؛ ومنها شهادات ما يوجههم الحكام الى امتحان ما لا غنى لهم عن امتحانه ممن يثقون به والى جيازات ما شهد فيه عندهم مما لا بد ان يجاز والى تنفيذ ما لا يمكنهم إنفاذه في مجالسهم لاسباب يطول ذكرها ولا اعذار في شيء من هذه الشهادات شهم باجماع ممّن مضى وممّن بقي وربما اكتفى في كثير منها بواحد قبل هذه كلها الاشهادات وهل بينها وبين غيرها فرق في شيء ومنها استفاضات الشهادات المشهود بها عن الحكام في الانساب القديمة والحديثة وفي الموت القديم والحديث وفي النكاحات القديمة والحديثة وفي الوراثات القديمة والحديثة وفي ولايات القضاة والحكام القديمة والحديثة وتواريخ اقضيتهم وَمُؤَدِهَا وفي الولاء القديم وفي الاحباس المتقادمة ومنها الضرورات تكون بين الازواج وفي أشياء سوى هذه يطول ذكرها وفي بعض ما ذكرناه كفاية من بعضها فهل هذه كلها الإشهادات كالتي قبلها هذا واذا ما أرجيت ذكره مما مضى به نطق الايمة المهتدين رضي الله عنهم من دون عمر بن الخطاب فمن بعده مما تفردوا بانقاذه وأمضوا أحكامهم به على الاستفاضة بل بدونها في استيصال الشكاك والملحدين والمتهمين بالتعطيل وتطهير البلاد واراحة العباد منهم لعلمهم بما لهم من ثواب الله

عز وجل في حياطة الديانة وصلاح الخاصة والعامة بما قد حمدته لهم العلماء والفقهاء والصالحون في أزمنتهم وبعدها الى يومنا هذا والذين يعلمون ما أقول ولو لم انزع بهذا كله ولم يثبت على هذا الملحد كل ما ثبت عليه الا ما كان يعد به جلساءه ومن يستتنيم اليهم من الخروج على إمام المسلمين اعزه الله ومن حمل السيف على رعيته وسبي ذراريهم لرجوت أن أحظى بما أشرت به فيه عند الله عز وجل وقد أخبرني من وثقت به عن قوم من الصالحين سماهم انه تقرب لهم بالمناصحة في نسائهم أن يطلقن الجمم ويتخذن الظفائر ويستعددن بها فانهن عن قريب يمتحن بالسبي من الشيعة لهن وأنه مقدّمتهم إليهن فكيف بمن له نصحت وعنه عز وجل قلت ما قلت واني لعلى بينة من ربي فيما به أمرت وكل بعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

اختلاف المستوى الذهنى من الفتيات الى الفتيان

بقلم الشاذلى الفيتورى

ليس القصد من هذه الصفحات القليلة الكشف عن كل الفروق الموجودة بين الفتيات والفتيان من حيث المستوى الذهني إذ ما توفّر لدينا من إرشادات ومعلومات إلى حدّ الآن ، ومجموع التجارب (وهي قليلة) التي وقع إجراؤها لغرض غير هذا الغرض لا يمكّن من ضبط هذه الفروق بصورة موضوعية تامّة . وكلّ ما نرجوه هو أن نكون قد أثرنا المشكلة ودعونا إلى التفكير فيها . ولربّما كان من المفيد بالنسبة إلى بلاد نامية كالبلاد التونسية أن يقع بحث هذه القضية بحثا مدقّقا يمكّن من تعديل طرقنا التربويّة تعديلا يضمن تنمية ما توفّر للنشء من استعدادات وقدرات . نقول هذا لانّ ما يلاحظ من معطيات قارّة بالرجوع إلى تجارب متباينة من حيث الطريقة والهدف يدعو إلى التفكير والتأمل . زد على ذلك أنّ هذه التجارب وقعت في فترات زمنية متباعدة (1956 1958 — 1963) ولم تؤثّر هذه المسافة الزمنية في تلك المعطيات القارة التي اشرنا إليها بالرغم من التقدّم الملحوظ في السير نحو تعميم التعليم من سنة 1956 إلى سنة 1963 .

لذا سنحاول فيما يلي وصف هذه التجارب مع ابراز نتائجها وتعليل هـذه النتـــائـج .

1 ـ التجربة الاولى (1956) (1) .

كان الدافع إلى القيام بهذه التجربة رغبة كـتابة الدولة للتربية القوميـة في التعرّف على نوع التقدُّم الذي يمكـن أن يتمّ لمجموعتين من التلاميذ : احداهما تخضع للطرق التقليدية والثانية للطرق النشيطة .

وقعت هذه التجربة في المدرسة الإبتدائية بضاحية « بن عروس » حيـث يوجد جماعة من المعلمين الشبان يطبقون هذه الطرق النشيطة وكانت غاية كـتابة الدولة للتربية القومية ـ عندما طلبت من مدير مركـز التوجيه الصناعـي واعـوانه القيام بهذه التجربة ـ أن تتبيـّن ما هـي اسباب هذا « الخمول الظاهر في سلوك تلاميذنا وعدم القدرة على الملاحظة والمبادرة والنشاط المثمر » (2) .

وقيمة هذه التجربـة بالنسبـة إلينـا جـاءت في كـونهـا شملت مجموعتين متساويتين تقريبا من الفتيان والفتيات . ثم إن اعتبرنا أن التجربة دامت سنتيـن كاملتين تبيـّنـا أنّ من المقارنة بين نتائـج الفتيان ونتائج الفتيات داخل كـلّ من المجموعتين (مجموعة الطرق التقليديـة ومجموعة الطـرق النشيطة) تتضح هـذه الفروق الموجودة بين الجنسين كما تتسنى دراسة هذه الفروق .

(1) قام بالتجربة الاولى والثـانية المـركز القومي للتوجيه الصنـاعى . وانى لاغتنم هذه الفرصة لاقـدم احـر عبارات الشكر والامتنـان الى صديقى رشيد عبد الجليل الذى ساعدنى على القيـام بهـذا العمل اذ مكننى من الاطلاع على مجموع الوثائق المتعلقة بهاتين التجربتين

(2) هذا ما ورد فى وثيقة من وثائق المركز القومى للتوجيه الصناعى

كان مجموع الاطفال الذين شملتهم هذه التجربة يساوي 173 تلميذا موزّعين إلى مجموعتين من الفصول المتوازية (السنة الاولى من التعليم الإبتدائي) وقد اجريت عليهم جملة من الاختبارات النفسيّة المدقّقة . ونتبيّن من خلال هذين الجدولين كيفية توزيع التلاميذ حسب العمر وحسب الجنس (3) .

تاريخ الولادة	على مائة طفل
1947 أو قبل هذا التاريخ......	6
1948	16
1949	41
1950	37
المجموع	100

الجنس	على مائة طفل
فتيان......................	67
فتيات......................	33
المجموع	100

ويلاحظ أنّه من حيث المستوى الإجتماعي والإقتصادي لا توجد فروق كبيرة بين هؤلاء التلاميذ بل كانوا كلهم من اوساط متواضعة جدا . ولو قام المركز القومي للتوجيه الصناعي قبل اجراء هذه التجربة ، بتحقيق شامل حول مستوى المعيشة لكان ذلك احسن بكثير إذ يمكّن من تصنيف التلاميذ بصورة أدق ومراعاة الفروق الموجودة بينهم لما لهذه الفروق من تأثير واضح في المستوى الذهني . لكنّه (كما سنرى ذلك فيما بعد) يلوح أنّ مجرّد الترجيح لهذا المستوى يكفي من الناحية المنهجية للاحراز على نتائج مرضية بالنسبة إلى النقطة التي تهمّنا أي المقارنة بين الفتيات والفتيان من حيث النموّ الذهني .

(3) ان نسبة الفتيات الى الفتيان (33 %) نسبة حسنة جدا اذ هى النسبة الحقيقية التى نجدها اليوم بالرجوع الى مختلف اصناف التعليم وذلك حسب ما صرح به السيد كاتب الدولة للتربية القومية فى اكتوبر 1963

وبخصوص الإختبارات النفسية التـي أجريت على هؤلاء التلاميذ كـانت مجموع الروائز المستخدمة هـي الآتيـة :

1) اختبار « جيل » كما وقع تعديله بالنسبة إلى الاطفال المغاربة (4) .

2) « مـاتـريـكس » 1947 (Matrix 1947)

3) اختبـار « هيـلاي » Hilay

4) اختبـار « بـرودومـو » Pru-dhommeau

ووقع اجراء هذه الاختبارات بصورة فردية ما عدا اختبار « برودومو » الذي أجري بصورة جماعية وعلى مجموعات مضيّقة (5) .

وهـكـذا باعتماد نتائج الاختبارات وملاحظات المعلمين وتوزيـع التلاميذ حسب العمر وقع تأليف مجموعتيـن اشتملت كـل منهما على ثلاثـة فصـول . ويلاحظ أن من المجموع (أي 173 تلميذا) لم يبق الى آخر التجربة (1958) إلاّ 120 تلميذا فحسب. وهـكذا تألّفت ستّة فصول لم يبلغ عدد التلاميذ في كل منهما إلاّ عشرين تلميذا الامر الذي مكّن من القيام بعمل تربوي ناجع ووَفّرَ خاصّة ظروفا ملائمة للملاحظة . وقد وقعت مراعاة احترام النسب في تأليف هذه الفصول بين الفتيات والفتيان كما وقعت مراعاة السنّ .

ثم بعد سنتين (ولتبيّن ما حصل من تقدم لهؤلاء التلاميذ من حيث النمو الذهنـي) وقع اعتماد اختبار « حيل » دون بقية الاختبارات .

وبالرغم من أنّ طريقة البحث قد تلوح طريقة تقريبيّة (إذ لا يخضـع النمو الذهنـي لمجرّد العوامل المدرسية كما أنّه لا يمكّن مجرّد اختبار « جيل »

---

(4) Test Mosaïque de Gille adapté à la population marocaine

(5) En collectif réduit

من تقديره بصورة مضبوطة) فانّ النتائج لا تخلو من أهميّة بالنسبة إلى الموضوع الذي نعالجه . وهذا ما يتجلّى في الجداول التالية .

أ ــ نتائج مجموع التلاميذ في الاختبارات الاولى والثانية :

الرتبة على 100 تلميذ	نتائج الاختبارات الاولى (1956)		نتـائج الاختبار الثانـي (1958)	
	الفتيات	الفتيان	الفتيات	الفتيان
25	54،5	60	80،1	76،3
50	49	50	72،8	69،1
75	39،5	42،5	63،4	61

ب ــ نتائج المجموعتين (المجموعـة الخاضعـة للطرق التقليديـة والمجموعـة الخاضعة للطرق النشيطة) في الإختبارات الاولى والثانية .

في الاختبـارات الاولى (1956)

الرتبة على 100 تلميذ	الطــرق النشيطة		الطــرق التقليدية	
	الفتيات	الفتيان	الفتيات	الفتيان
25	54	59	56	63
50	48	50	50	53
75	40	43	37	43

في الاختبــار الثـانـي (1958)

الرتبة على 100 تلميذ	الطــرق النشيطة		الطــرق التقليدية	
	الفتيات	الفتيان	الفتيات	الفتيان
25	76	72	83	81
50	66	67	79	75
75	56	61	73	67

فمن مقارنة هذه الجداول يمكننا أن نستنتج نسبة التقدُّم الحاصل لمجموع الاطفال من جهة كما يمكننا أن نقارن بين نسبة تقدُّم الفتيان ونسبة تقدُّم الفتيات من جهة ثانية . وهذا ما يبرزه الجدول (ج) .

ج — التقدم الحاصل عند انتهاء التجربة .

الرتبة على 100 تلميذ	الطرق النشيطة		الطرق التقليدية	
	الفتيات	الفتيان	الفتيات	الفتيان
	التقدُّم الحاصل ونسبته المأوية (6)			
25	22 (40%)	13 (22%)	27 (28%)	18 (28%)
50	18 (37%)	17 (34%)	29 (60%)	22 (41%)
75	16 (40%)	18 (42%)	36 (50%)	24 (55%)

د — أمّا النسبة المأويّة المتوسّطة للتقدُّم الذي احرز عليه التلاميذ ومع مراعاة الجنس والطريقة المتّبعة ، فقد كانت بالصورة التالية .

	الطرق النشيطة		الطرق التقليدية	
	الفتيات	الفتيان	الفتيات	الفتيان
٪المتوسّطة	39%	33%	46%	41%
٪المتوسطة باعتبار الطريقة	36%		43،5%	

(6) ضبطت هذه النسبة بالرجوع الى نتائج الاختبارات الاولى

بعض الملاحظات :

يمكّن الجدول (أ) (نتائج مجموع التلاميذ في الإختبارات الاولى والثانية) من مقارنة تقدُّم الفتيات بتقدُّم الفتيان : .

الرتبة على 100 تلميذ	تقدُّم الفتيات	تقدُّم الفتيان	تفوُّق الفتيات
25	80،1 — 54،5 = 25،6	76،3 — 60 = 16،3	3،9
50	72،8 — 49 = 23،8	69،1 — 50 = 19،1	7،4
75	63،4 — 39،5 = 23،9	61 — 42،5 = 18،5	4،5
الفـــارق العـــام			4،6

وهكـذا يتبيّن أنّ تفوق الفتيات على الفتيان بصورة عامّة يقدّر بـ 6،4 في حين أنه اذا عدنا إلى الجدول (ب) وجدنا الفتيات متأخّرات ، في بـدايـة التجربة ، عن الفتيان . فتكـون النتيجة أنهنّ لم يلتحقن في هذه المدّة (أي مدّة التجربة وقد دامت سنتين) بالفتيان فحسب بل تجاوزنهم ومن بعيد . وفي ذلك ما يدلُّ على نموٍّ ذهني سريع وسريع جدّاً .

لقد اثبت علماء النفس (7) من خلال تجارب وملاحظات طويلة أنّ الفتاة في سنواتها الاولى يكـون نموُّها أسرع من نموِّ الفتى . ثم يلتحق بها الفتى إثر أزمة البلوغ ويتجاوزها أو يبقى مساويا لها من حيث المستوى الذهني ويختلف ذلك باختلاف المؤثرات التربوية والجو الثقافي العام الذي يشمل الجنسين . لكـنّ هذه الفروق التي لاحظها علماء النفس لا تبلغ هذا المقدار من التفاوت الـذي يلاحظ بينهنّ وبينهم من خلال نتائج هذه التجربة . ثم إنّ هذا التفاوت لا

(7) وخاصة منهم العلماء الانقليز وقد تناولوا بالبحث مجموعات كبيرة من الاطفال الذين ولدوا في يوم واحد وفي مناطق كاملة من البلاد الانقليزية وقد تعرض « كارميكائيل » لذلك في كتابه « علم نفس الطفل »

يلاحظ بالرجوع إلى نتائج هذه التجربة بل سنلاحظه عند ذكـر تجارب أخرى تجاوز عدد الاطفال فيها عددهم في هذه التجربة وبكـثير . لذا لا يمكـن أن نقتنع بما استقرّ عليه رأي علماء النفس لتفسير هذه الظاهرة بل لا بدّ لنا مـن الرجوع إلى مجموع من العوامل الخاصّة بالبلاد التونسية (وبقية بلدان المغـرب العربي) لفهم هذا التفاوت وتفسيره . وهذا ما سنعود إليه في الصفحات الآتية .

كـذلك نلاحظ من خلال الجدول (د) أن نسبة تفوُّق الفتيات على الفتيان في المجموعة الخاضعة للطرق النشيطة تساوي 6٪ وأنّ هذه النسبة في المجمـوعة الخاضعة للطريقة التقليدية تساوي 5٪ . وممّا يزيد في غرابة هذه النتائج انهـنّ اقلّية في كـلتا المجموعتين وخاصّة في المجموعة الخاضعة للطريقة التقليديّة التـي جاء التقدُّم فيها يساوي 43،5٪ في حين أنّه لا يساوي إلاّ 36٪ في المجمـوعة الخاضعة للطـرق النشيطـة (8) .

تـوزيـع التلاميذ حسب الجنس

الجنس	على مجمـــوع 100 تلميـذ	
	الطـرق النشيطة	الطـريقة التقليدية
الفتيـان	63،5	72
الفتيـات	36،5	28
المجموع	100	100

فـكـلُّ هذا يثير مشـكـلا من أهمّ المشاكـل .

(8) لا يمكن ان نستنتج من هذا ان الطريقة التقليدية تفوق الطـرق النشيطة قيمة اذ لم يقع فى هذه التجربة اعتبار الفروق الشخصية بين التلاميذ كما انه لم يؤخذ بعين الاعتبار ما يوجد من فـروق بين المعلمين . وكـل هذا من شانه ان يؤثر فى نتائج التجربة . لكنه ما يهمنا فى هذا الصدد ــ وقد تبقى له قيمته الموضوعية بالرغم مما ذكـر ــ هـو الفـرق بـين مستوى الفتيات ومستوى الفتيان . وهذه المستويات قـد وقع تقديرها باستخدام روائز (وخاصة منها رائز جيل) لا يتوقف النجـاح فيها على المعلومات المدرسية .

بقـي علينا بخصوص هذه التجربة أن نشير إلى كـيفيّة توزيـع التلاميـذ على المجموعتين حسب العمر حتى لا يـكـون لهذا العامل تأثيره في قيمة النتائج .

سنة الولادة	على مجمـــوع 100 تلميـذ	
	الطـرق النشيطة	الطـريقة التقليديّة
1947 — 1948	8،5	43
1949 — 1950	91،5	57

وممّا يجدر بالملاحظة أن أصغر التّلاميذ سنّا كانوا احسنهم نتائج .

وقد يتبادر إلى الذهن أنّ سرعة النموّ عند الفتاة تبلغ اقصاها فيما بين السنة السادسة والسابعة . ولربّما كان ذلك سببا في احرازنا على هذه النتائج . فرفعاً لهذا التشـكّك لجأنا إلى نتائج تجربة ثانية وقع إجراؤها على 8760 تلميذا وتلميذة كان العمر المتوسّط بالنسبة إليهم يساوي 13 سنة .

2 — التجربـة الثـانية (1958) .

وقعت هذه التجربة على 8760 تلميذا موزعين على كامل مدارس الجمهورية التونسية تقريبا . وكانت المجموعة تتألف بالصورة التالية :

الفتيـــات : 2625	الفتيـــان : 6135	(9)

ونظرا لارتفاع العدد وقع الاقتصار في تقدير المستوى الذهنـي على اختبارين :

1) اختبار شفوي وهو « اختبار تيرمان الجماعـي شـكـل (ب) » (10) وقد وقع التغيير من بعض جزئياته كـتعويض اسم « البراس » باسم منطقة الجريد .

(9) يمكن ان نلاحظ كذلك بخصوص هـذه التجربـة ان نسبة الفتيـات الى الفتيان تساوى 30 % وهى النسبة الحاصلة اليوم في كـامل اصنـاف التعليم (ما عدا التعليم العالى وقد جاءت نسبتهن قليلة جدا)

(10) Le Terman Collectif forme B.

2) اختبار « لا شفوي » وهو « اختبار الإستدلال المجرّد » (11) وهو يفحص قدرة الطفل على الإدراك والتمييز إذ يطلب منه أن يختار من مجموع أشكال الشكل المتمّم لصورة منقوصة . وقد وقع في كلّ هذا مراعاة العمر في تقدير « معدّل الذكاء المدرسي » (12) باستخدام اختبار « تيرمان » (13) .

وقد وقع ضبط سلّم هذا الإختبار باجرائه على 1096 تلميذا من تلاميذ المعاهد الثانوية بتونس موزّعين هذا التوزيع :

601 فتى و 495 فتاة

ثم من المقارنة بين نتائج الإختبار والنتائج المدرسيّة اتّضح أنّه « لا يحرز على المعدّل المدرسي (أي $\frac{10}{20}$) أو ما يفوق هذا المعدّل إلاّ من كان معدّل الذكاء المدرسي (Q. I. S.) بالنسبة إليه يساوي أو يفوق 95 » (14) .

وبعد القيام بعمليات إحصائية استطاع المجربون من تأويل نتائج هذا الاختبار بالصورة التالية .

إن كان « معدّل الذكاء المدرسي » : *تحت 65 يعني ذلك : تأخرا مدرسيا كبيرا .*

---

(11) Le raisonnement abstrait

(12) ما يسمى بالفرنسية Le quotient intellectuel scolaire ويشار اليه بهذا الرمز .Q. I. S ويضبط هذا المعدل باستخدام ما تم للطفل من معلومات مدرسية الى جانب ما توفر له من ذكاء

(13) اقتبسنا كل هذه المعطيات من وثيقة من وثائق المركز القومى للتوجيه الصناعى

(14) هذا ما ورد فى الوثيقة المذكورة

إن كان « معدّل الذكاء المدرسي » : يتراوح بين 66 و85 يعني ذلك : تأخّيرا مدرسيا خفيفا .

إن كان « معدّل الذكاء المدرسي » : يتراوح بين 86 و105 يعني ذلك : مستوى مدرسيا عاديا .

إن كان « معدّل الذكاء المدرسي » : يتراوح بين 106 و115 يعني ذلك : تلميذا موهوبا .

إن كان « معدّل الذكاء المدرسي » : يفوق 115 يعني ذلك : تلميذا موهوبا جدّا .

وقد اجريت هذه التجربة على تلاميذ وتلميذات السنتين الخامسة والسادسة من التعليم الإبتدائي فكانت نتائجها :

	معدّل الذكاء المدرسي	الفتيان	٪
موهوب جدا ...	يفوق 115	34	0،54٪
موهوب	يساوى أو يفوق 106	134	2،20٪
عادى............	يساوى أو يفوق 85	2390	39،40٪
متأخّر............	تحت.. 85	3512	57،86٪

(15)	معدّل الذكاء المدرسي	الفتيات	٪
موهوب جدا ...	يفوق 115	76	2٪
موهوب............	يساوى أو يفوق 106	122	4،60٪
عادى............	يساوى أو يفوق 85	1081	40،40٪
متأخّر	تحت.. 85	1345	52٪

(15) لا يمكن ان تفسر هذه النسبة المرتفعة للتاخر المدرسى الا بالعوامل الثقافية المؤثرة فى الطفل . وهذه العوامل لا يمكن ان تكون الا منحطة نظرا لمستوى الاسرة من الوجهة الثقافية لا فى تونس فحسب بل وكذلك فى كامل البلدان المتخلفة . اضف الى ذلك تكاثر التلاميذ فى الاقسام وضعف مستوى المعلمين

يلاحظ من نتائج هذه التجربة البارزة في هذا الجدول أن الفتيات قد تفوّقن بكثير على الفتيان إلاّ في مستوى واحد جاءت نسبة الفتيات فيه أقل من نسبة الفتيان وهو مستوى التأخّر المدرسي . ولا يزيد هذا إلا تدعيما للملاحظات التي قمنا بها عند التعرّض لنتائج التجربة الاولى . وقد كان من المنتظر في هذه التجربة باعتبار سنّ التلميذات (13 سنة) أن يتفوّق الفتيان على الفتيات لانّ الفتاة في مثل هذا العمر تكون قد توغّلت في أزمة البلوغ الامر الذي يجعل قواها العقلية في حالة اضطراب وغموض بتأثير العوامل الانفعالية فيها تأثيرا شديدا . ولربّما كان ذلك ما جعل التفاوت بينهنّ وبينهم أقل في هذه التجربة منه في التجربة الاولى حين كان عمر الفتيات يتراوح بين 7 و8 سنوات .

3 — التجربة الثالثة (1963) .

قمنا بهذه التجربة في بداية السنة الدراسية 1962 — 1963 على مجموعة من الاطفال في السنة الاولى من التعليم الإبتدائي بلغ عددهم 521 طفلا . وكانوا موزّعين بالصورة التالية : 303 فتى و 218 فتاة .

كانت التجربة تهدف إلى ضبط المستوى الثقافي لكلّ طفل ومقارنته بمستواه الذهني الامر الذي أدّى بنا إلى استنباط تجربة خاصّة يمكن أن تُعتبر « اختبارا ثقافيا » (16) ومقارنة نتائج هذا الإختبار بنتائج اختبار « جيل » والنتائج

(16) Un Test D'acculturation . لقد وقع عرض هذا الاختبار ونتائجه على الاساتذة « روبار باجاس » مدير مخبر علم النفس الاجتماعي بالصربون و « روني زازو » مدير مخبر علم النفس البيولوجي و « بيار اوليرون » مدير مخبر علم النفس النشوئي بالصربون فوافقوا على المنهج والنتائج

المدرسيّة من جهة ثم بمعطيات تحقيق مدقّق تناول الطفل واسرته من حيث المستوى الإجتماعي والمستوى الإقتصادي والمستوى الثقافي .

كذلك ، وحرصا منا على صحّة نتائج التجربة ، حاولنا أن تكون العيّنة تمثّل كامل المستويات « الإجتماعية – الثقافية » الموجودة في تونس . فاعتمدنا لتحقيق هذه الغاية توزيع المدارس من الناحية الجغرافية على مختلف احياء المدينة : فمن الاحياء الهامشيّة (بمدرسة نهج علي طراد) إلى مركز المدينة (بفرع الصادقية القصبة) نستطيع أن نحرز على كامل المستويات الإقتصادية والثقافية الموجودة اليوم لا في تونس العاصمة فحسب بل وكذلك في كامل تراب الجمهورية إذ جاءت طبقات السكّان في العاصمة تاليفا لمختلف الطبقات الإجتماعية في البلاد التونسية .

ثم ما دمنا في غنى عَن توضيح علاقة المستوى الثقافي بالنموّ الذهني (17) ثم علاقة هذا المستوى بقدرة الطفل على التعبير (18) فكرنا في ضبط مجموعتين

---

(17) لقد اوضح ذلك بصورة نهائية « روني هوبار فى كتابه النمو الذهنى » الجزء الثانى ص 627 اذ قال : « ان العوامل الاجتماعية المؤثرة فى النمو (الذهنى) هى فى جوهرها عوامل ثقافية وليست مجرد تفاعل عوامل طبيعية » . « CF : R. Hubert : La Croissance Mentale « P.U.F. 1949

(18) نقول القدرة على التعبير لانه يوجد فرق بين ما يفهمه الطفل من كلام وما يكون قادرا على استخدامه من ذلك الكلام عند ما يلجا الى التعبير . وقد اثبت « بياجي » و « دى لاكروا » وغيرهما ما هى علاقة الفهم بالاستعمال فى لغة الطفل وان الاستعمال يقتضى اقصى درجات الفهم . بل اكثر من ذلك : ما لم يكن اللفظ يشير الى معطى من معطيات تجربة اساسية قام بها الطفل فى طور من اطوار نموه فانه لا يكون قادرا على استخدامه، اذن يمكن ان نقول اننا عكسنا السير فى هذه التجربة بان حاولنا التعرف على هذه التجارب من خلال تعبير الطفل(Son langage expressif) لا من خلال ما يفهم من كلام فحسب (Son langage impressif

من الصور احداهما تمثل أشياء معهودة لدى الطفل (او تلوح كـذلك) والثـانية تمثّل جملة من الافعال البسيطة (19) .

ثم قُدّمت هذه الصور لكـلّ طفل على حدة بمحضر مجرّبين أحدهما يقدّم الصور ويسهر على آلة « الكـرونوماتر » لضبط الحدود الزمنية (20) التـي ينهـي فيها كـلّ طفل تجربته ، والثانـي يرسم على ورق خاص ارقام الصور التـي لم يتعرّف عليها الطفل كمـا يرسم مجمـوع الملاحظات المتعلّقـة بلغتـه (يُسْرُ التعبير أو عسره — اضطرابات اللغة وأمراضها في بعض الاحيان — موقف الطفل من بعض الصور الخ...) .

وتظهر نتائج هذه التجربة بصورة واضحة في الخطوط البيانية التي تلي هذا المقال وقد ضبطنا على خطّ الفـاصلة الزمنَ مقدّرا بالثوانـي والدقائق وصنّفنا على خط الترتيب مجموع الاطفال من كـلّ فصل ومن أسفل إلى أعلى باعتبار معطيات التحقيق من جهة (21) وعدد الصور التي لم يدركها الطفل (22) من جهة ثانية .

(19) لقد ميزنا بين الاشياء والافعال حتى تتسنى لنا دراسة مظهرين اساسيين من لغة الطفل : ما يسمى « بالكلام القار » (le langage statique) اى الاسماء من جهـة « والـكلام المتحـرك » Le langage dynamique اى الافعـال من جهـة اخـرى .

(20) تراعى هذه الحدود الزمنية لانه لم يطلب من الطفل ان يتكلم بصورة حرة لكى نتامل كلامه بل طلب منه ان **يدرك** الصورة اولا وان يتكلم ثانيا . فسرعة الادراك هنا لها قيمة كبرى من حيث تقدير المستوى الذهنى .

(21) قدرنا المستوى الاقتصادى والمستوى الاجتماعى والمستوى الثقافى بارقام اصطلاحيـة حسب سلم مـوحدة بالنسبـة الى كل الاطفال . ولو اتسع المجال لنقوم بتحقيق مدقق حـول مستوى العيش لكل اسرة لكان ذلك احسن وادق .

(22) لذلك كان احسن الاطفال (اى من كان عدد الصور المجهولة لديه قليلا) اقربهم الى الصفر على خط التـرتيب . لان الرتبة قدرت بضرب العـدد الاول (مجموع المستويـات المشار اليهـا فى (21))فى الثانى (اى عـدد الصور المجهولة) .

يلاحظ من خلال نتائج هذه التجربة ومعطيات التحقيق أن أنجب التلاميذ احسنهم مستوى اقتصادي . وقد يلوح هذا الربط بين المستوى الإقتصادي والمستوى الثقافي ربطا مصطنعا . الا أنّه ليس كذلك بالنسبة إلى البلاد المتخلّفة التي يكون ثمانون بالمائة من سكّانها في صراع مستمر مع مشاكل القوت اليومي . فكيف السبيل إلى الثقافة ووسائل التثقّف في مثل هذه الحالات ؟ فكلّما انحدرنا تحت مستوى اقتصادي ادنى معيّن تبخّرت كلُ وسائل التثقيف وانحطّ مستوى الاسرة فتبعه بصورة حتميّة مستوى الطفل .

على كل وبالرغم من أن هذه المعطيات واحدة بالنسبة إلى الفتيان والفتيات فاننا نلاحظ بصورة واضحة تفوُّق الفتيات على الفتيان . فبماذا يفسّر هذا التفوُّق ؟

إنّه لمن الصعب جدّا أن يحاول الإنسان تفسير هذه الظاهرة وهو لا يستند إلاّ إلى معطيات جزئية كهذه المعطيات إذ لو اردنا أن يكون التفسير تفسيرا علميّا بالمعنى الصحيح لاقتضى ذلك دراسة عمودية (23) تتناول بالملاحظة والتجريب آلافا وآلافا من الاطفال (لا بعض المئات) ومدة سنوات وسنوات (لا سنتين) . لكنّه ما دمنا قد احرزنا على بعض النتائج وريثما تتوفّر شروط هذه الدراسة نستطيع أن نفسّر هذه الظاهرة بأن نرجعها إلى :

1) الفرق من حيث سرعة النموّ الجسدي والنفسي بين الفتيات والفتيان . وقد اشرنا إلى ذلك في بداية هذا المقال وبينّا أنّه لا يمكن الإكتفاء به .

(23) Une étude longitudinale

2) الحــــرمـان (La frustration)

إنّ الحرمان المسلّط على الفتـاة في الاسرة ومكـانتهـا إلى جانب أخيهـا أو اخوتها قد يُظنّ أنّه يؤدّي بها بصورة حتميّة إلى تذبذب الشخصيّة والإندثار . لكنّه كثيرا ما يحصل العكس إذ يكون من نتيجة هذا الحرمان الذي تقاسية الفتاة في البيت أن تتولّد في نفسها دوافع كبيرة (24) عندما تخرج إلى المدرسة . فينتج عن ذلك تعطش كبير إلى المعرفة وازدياد في القدرة على الإدراك والحفظ . هذا ما نفهم به أنّه عندما ننظر في نتائج كثير من الفتيات الفقيرات نجدهـا مساوية أو تفـوق نتـائج كـثيـر من الفتيـان الذين يتمتّعـون بمستوى ثقـافي واقتصادي حسن .

2) عقـــدة « إلـكـترا » (25) .

يكـون الفتى طبقا لعقدة « اوديب » لا يقاسـي من الحرمان والتوتّر النفسـي ما تقاسيه الفتاة إذ يكـون اتصاله بأمّه ومنذ الولادة اتصـالا دائمـا في حين أن الفتاة لا تتصل بأبيها إلاّ في مناسبـات قليلـة ثم قلّ ما يكـون هذا الإتصـال ملائما للنفس . فيحدث لها عند مغادرتها البيت وخروجها إلى المدرسة نوع من سلوك التعويض يجعلها انشط من الفتى وأكـثر منه قابلية .

---

(24) De grandes motivations

(25) Le complexe d'Electre وهو مـا يسـوى عقـدة او ديـب عنـد الفـتى « الكترا » هي ابنـة « آقاميمنون » Agamemnon اجتهـدت في حمـل اخيها « اوراست » Oreste على قتل امها لتثار لابيها .

3) العـــادات والتقـــاليد :

يمكـن أن نقول بصورة إجمالية إنّ الفتاة التونسية تحمل في البيت عبء هذه العادات والتقاليد التـي لم تجعل « الرجال قوامين على النساء » فحسب بل عملت على محق الانثى إلى جانب الذكر سـواء كان هذا الذكر أباها أو أخاهـا . كـلّ هذا ربما يجعلنا نفهم لماذا كان هذا الجيل من الفتيات (اللاتـي توفّرت لهنّ فرصة التعلّم وفرصة الفرار من البيت إلى المدرسة حيث يوجد نظام قائم على مبدا العـدل) يبـرهن على استعـداد متزايد للتثقّف وقـدرة على الرفـع من مستواه الذهنـي . فـكـلّ ذلك يمكـن أن يُعتبر أيضا مظهرا من مظاهر سلوك التعويض. فـكـأنّ الفتاة تريد (بصورة شعورية) أن تقيم الدليل لاخيها ولابيها (باعتبارهما يمثلان جنس الذكـور) أنها قادرة على الالتحاق بهما وزيادة .

ثم حتّى وإن لم تُصبـح هذه المنافسة امرا واضحا في سلوك الفتاة فانّه يمكن أن يُفسّر كـذلك تفوّقها على الفتيان بمجموع الميول « النرجسية » (25) التـي تشتدّ عند الفتاة في سنّ الطفولة الثالثة اكثر ممّا تشتدّ عند الفتى . فهو نوع من النرجسية الفكـريّة (26) يجعلها لا تريد النجاح فحسب بل ترغب في النبوغ حتى تفخر بذلك على أمّها أوّلاً (إن كانت جاهلة) وعلى أخواتها وقريناتها (إن كـنّ جاهلات كـذلك) . ويـكـون كـلّ ذلك ، بالطبـع ، بصورة لا شعوريّة إذ هو مظهـر مشتقّ من مظاهر عقدة « إلـكـترا » .

(25) Les tendances narcissiques

(26) Un certain narcissisme intellectuel

4) التـــاريـخ :

حتى وإن كـنت لا أرتاح إلى هذا النوع من التفسير إذ يلوح أقـرب إلى التفسير الفلسفـي منه إلى التفسير العلمـي فانّـي اعتبره مجرّد افتراض من الناحية المنهجية قد تُصبـح له قيمة لو استطاع جماعة من الباحثين (وفي نطاق علـم النفس الإجتمـاعـي) أن يقومـوا بمقـارنات بين مـواقف (Les attitudes) الفتـاة التونسية ومواقف الفتاة الفرنسية مثلا من المؤسّسات والعوامـل الثقافية والتربويـّة .

يمكـن أن نقول إذن إن الفتاة بتفوُّقها هذا كـأنّـها تريد لا أن تثأر لنفسها فحسب بل وكـذلك لاجيال وأجيال من الفتيات اللاتي لم يسعفن بحظهنّ في التعلّـــم .

5) الاتصـــال بالغيـر (La relation avec autrui)

ما أن يبلغ الفتى الرابعة أو الخامسة من العمر وقبل دخوله المدرسة تجده قد انضمّ إلى مجموعة اطفال كـلّـهم في سنّ واحدة وعلى مستوى ذهنـي واحد . في حين أنّ الفتاة تلازم البيت وتـكـون بذلك على اتصال دائم بالـكـهول الامر الذي يجعلهـا تغنم في بدايـة نموّها من مستواهـم الذهنـي . لـكـنّ غنمها من الـكـهول (إن كانوا أمّيين) لا يتجاوز مستوى معينا سرعان ما تتجاوزه إن قدّر لهـا أن تتعلّـم .

6) تحمّــل المسؤوليـات

تُحمَّل الفتاة منذ الصغر (وحتّى في الاوساط الراقية) مسؤوليات لا يُحملها الفتى فيكـون ذلك ممّا يجعل نُضجها (27) اسرع بـكـثير من نضج الفتـى فهـي تعين على تدبير شؤون المنـزل وتسهر على اخوتها الصغار الخ...

7) الإذاعــــة

كـثيرا ما اعتبر المربّون الإذاعة عاملا من عوامل تشتيت الانتباه بالنسبة إلى التلميذ . فان صحّ ذلك بالنسبة إلى الفتى الذي يقضّـي كامل يومه في مجموعة الاطفال ثم يدخل البيت في الاوقات التـي تضرب فيها عليه المراقبة للقيام بدروسه فيلجأ إذ ّاك إلى الاستماع إلى المذياع ويهمل الدروس فانّ هذا لا يصحُّ في شأن الفتاة التـي لها من الوقت (وهـي تقضّـي جلّ اوقاتها في البيت) ما يمـكّنها من القيام بدروسها والاستماع إلى الاذاعة معا . ثم قبل أن تصبـح لها دروس اي قبـل أن تدخـل المـدرسة كـانت تستمع إلى هذه الاذاعـة طيلـة اليوم وبدون انقطاع (28) حين كان أخوها يشارك الصبيان ألعابهم . فبالرغم ممّا يمكـن أن يوجّه من انتقاد إلى البرامج الإذاعيّة فانها تبقى — بالنسبة إلى الفتاة ومن حيـث العناصر الثقافية التـي اشتملت عليها الحصص (زيادة على اللغـة التـي جـاءت اكـثر تهذيبا من لغة الشارع) — من اهم العوامل التـي يمكـنُ أن نفسّر بهـا تفوُّق الفتيات على الفتيان .

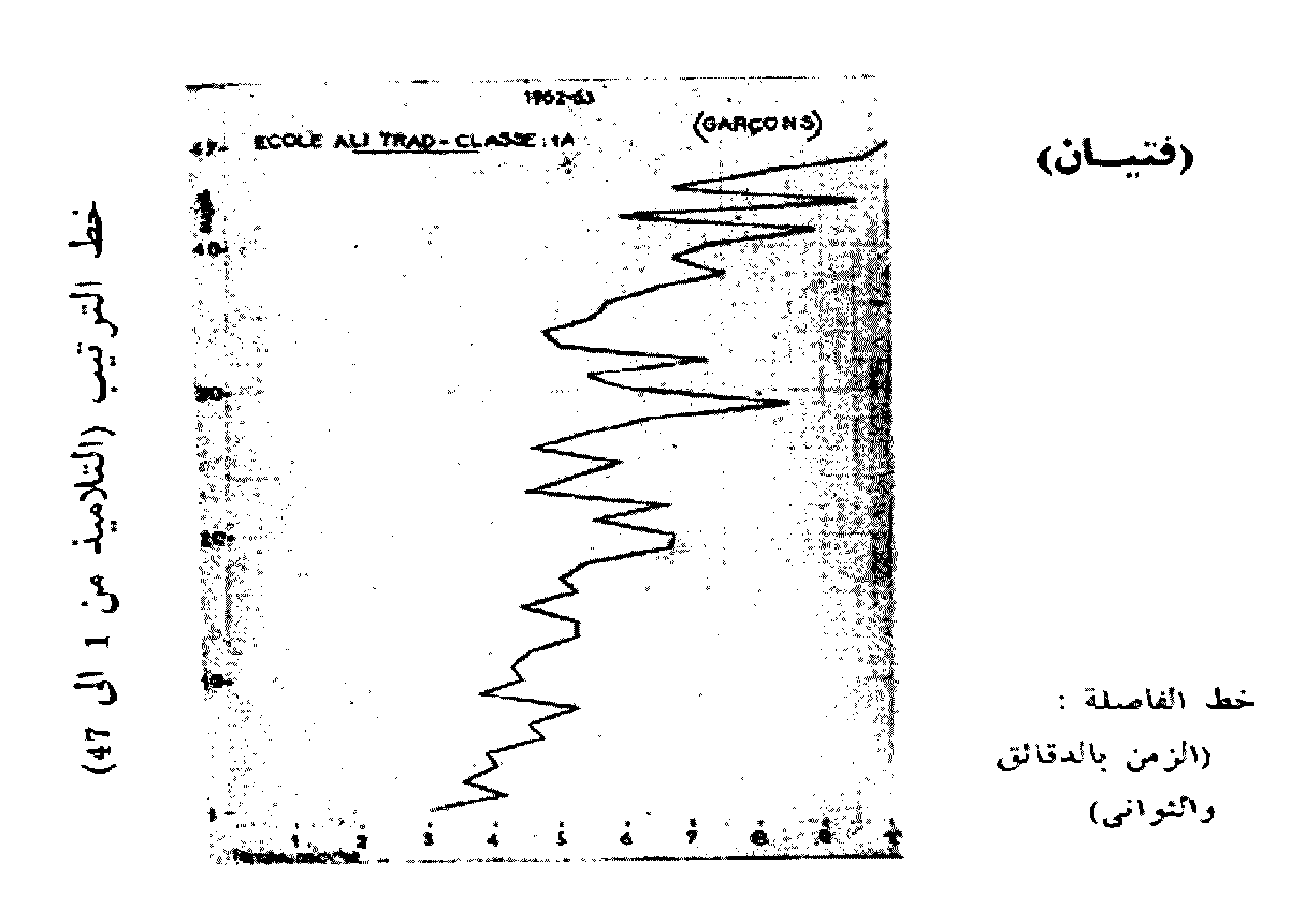
(27) نريد بهذه الكلمة ما يساوى الكلمة الفرنسية maturation لا maturité

(28) يظهر ان هذه الظاهـرة ظاهرة خاصـة بسـكان بلدان حـوض البحـر الابيض المتوسط !

كلّ هذا يجعلنا نلفت نظر المربّين إلى ظاهرة ربّما تجاهلها الكثير منهم .

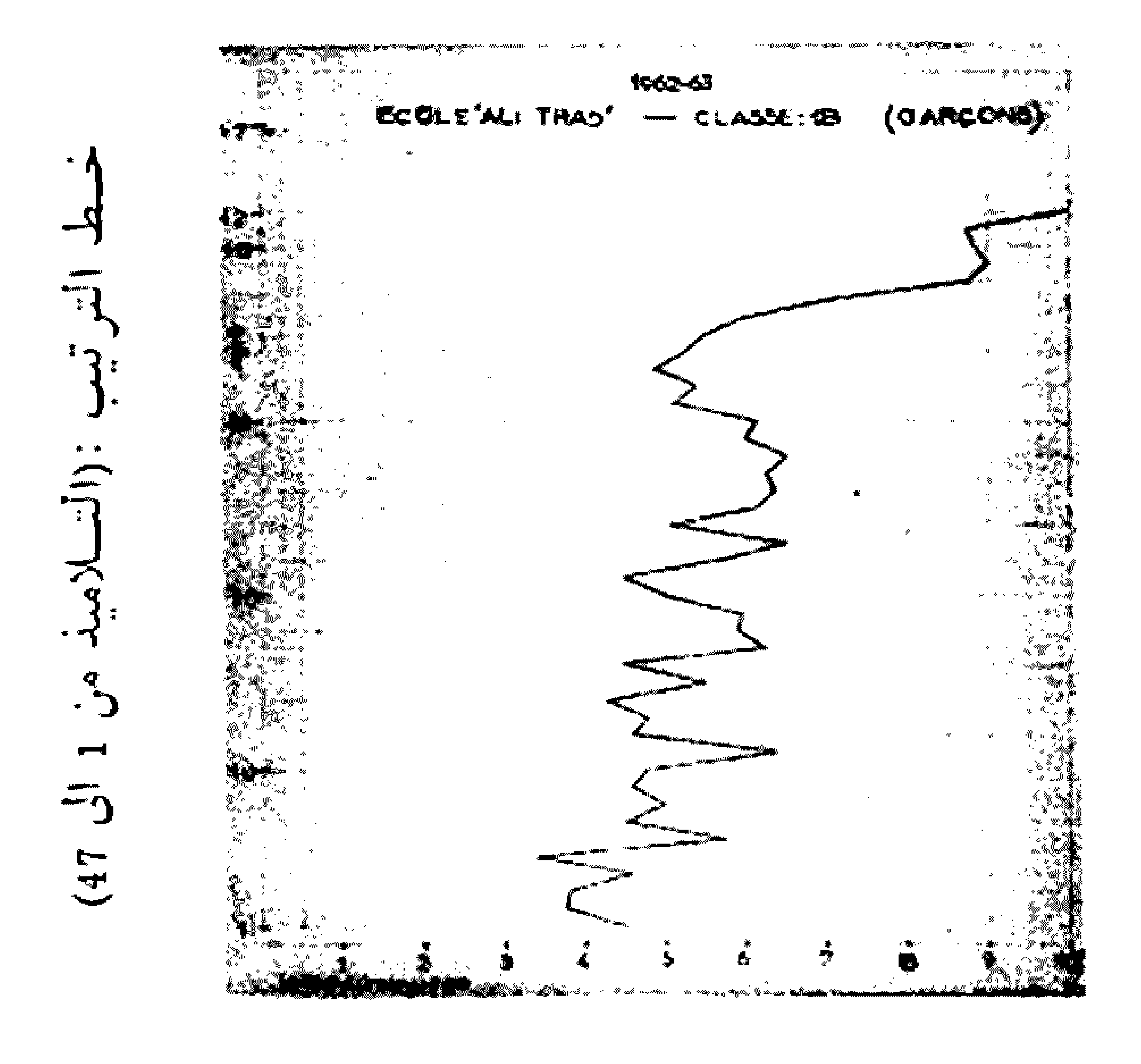
إن كانت التربية اليوم ترمي إلى تنمية مدارك الإنسان والرفع من مستواه اكثر فأكثر فهلاّ يكون من واجبنا أن نعيد النظر في اساليبنا التربويّة وفي برامج تعليمنا خاصة عندما تعنى هذه التربيّة بالفتاة وقد توفّر لها من الإمكانيات ما يجعلها قادرة على تجاوز مستواها الحالي ؟ ثم إن اقتنعنا بهذا التفاوت الموجود بينهنّ وبينهم فهلاّ يكون من الاصلح أن نخصّهن (على الاقلّ في المرحلة الإبتدائية) بطرق تربوية وببرامج للتعليم تكون أقرب إلى ما لهنّ من استعدادات ؟

مجمـوع الخطوط البيانيـة الدالة على نتائـج التجربة الثالثـة



يمثل هــذا الخط البيانى نتــائج تلاميذ السنة الاولى (أ) من مدرسة نهج « على طراد » والملاحظ ان هذه المـدرسة تقع على هامش حى « مونفلورى » بالقــرب من اكـواخ السيدة المنوبية وبرج على الرايس . فنسبة التلاميذ الفقراء فيها مرتفعة جدا . ونــلاحظ من خــلال هــذا الخط البيانى ان التلميذ الاول انهى تجربته فى الدقيقة الثالثة فى حين ان التلميذ الاخير لم ينهها الا فى الدقيقة الخامسة عشرة . وقد اضطررنا الى قطع الخط البيانى لعدم اتساع الورق

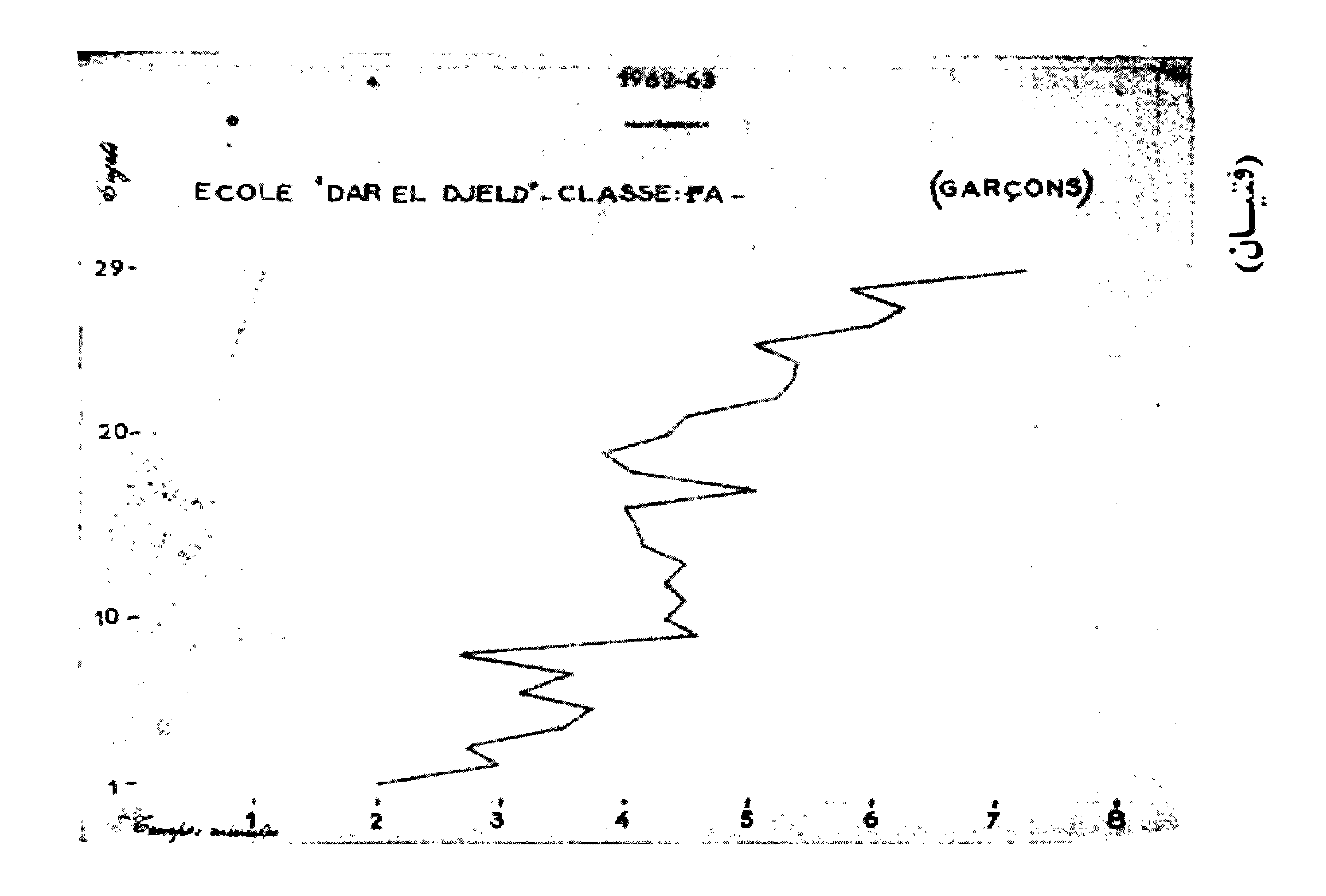
(فتيـــان)



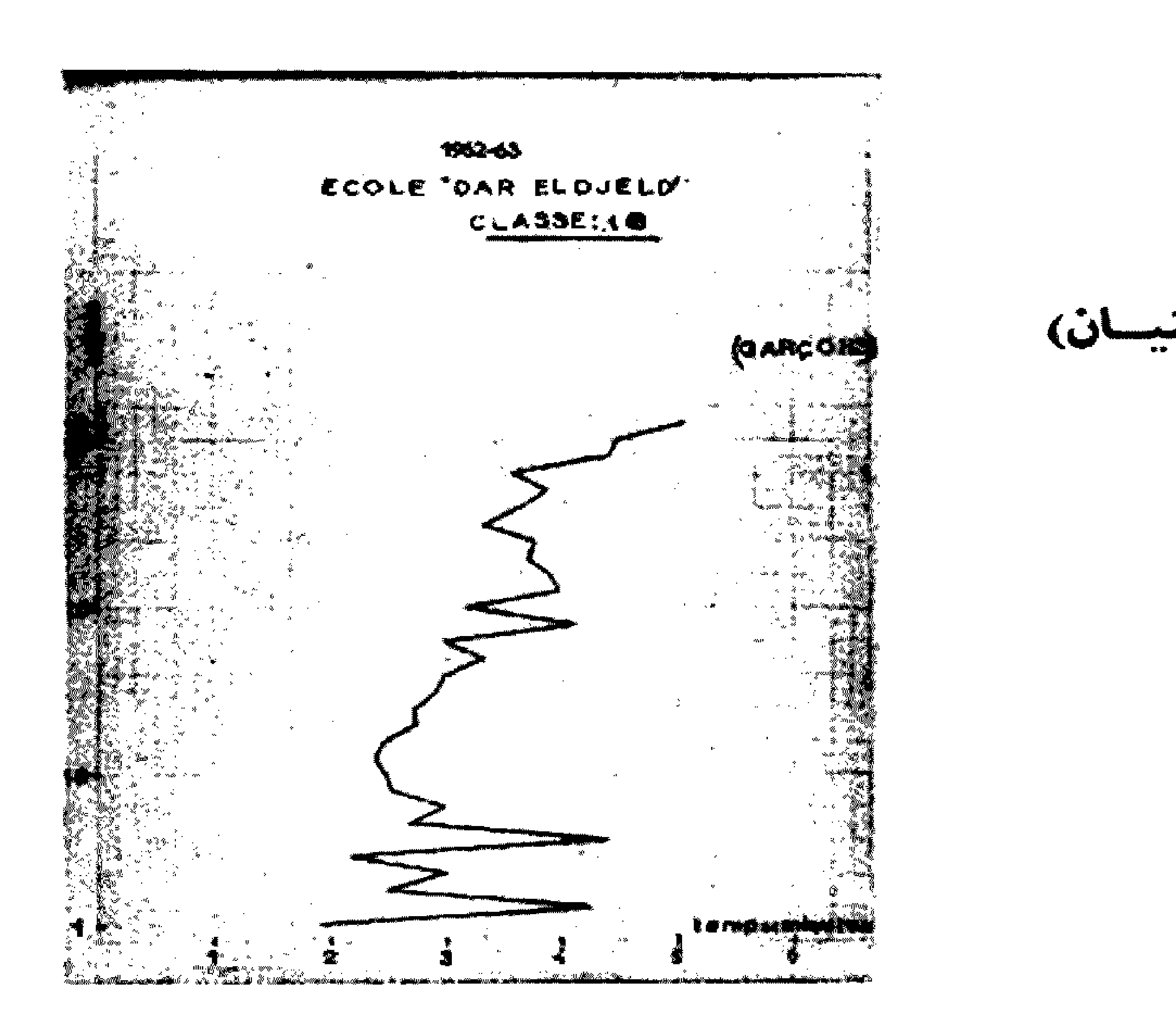
خط الفاصلة :
(الزمن بالدقائق
والثواني)

مدرسة نهج على طراد ـ السنة الاولى (ب)

يلاحظ في هذا الفصل والفصل الذي تقدمه ان عدد التلاميذ مرتفع جدا (47) ولا يستبعد ان يكون ارتفاع هذا العدد بالاضافة الى انحطاط المستوى الاقتصادي والمستوى الثقافي هـو الـذي يفسر هذه النتائج الرديئة التي احرز عليها التلاميذ من خلال هذه التجربة . فالتلميذ الاول في هذا الفصل ياتي في النقطـة الخامسة من الخط البياني وقد انهى تجربته بعد ثـلاث دقائق ونصف في حين ان الاخير لم ينهها الا بعد الدقيقة العاشرة



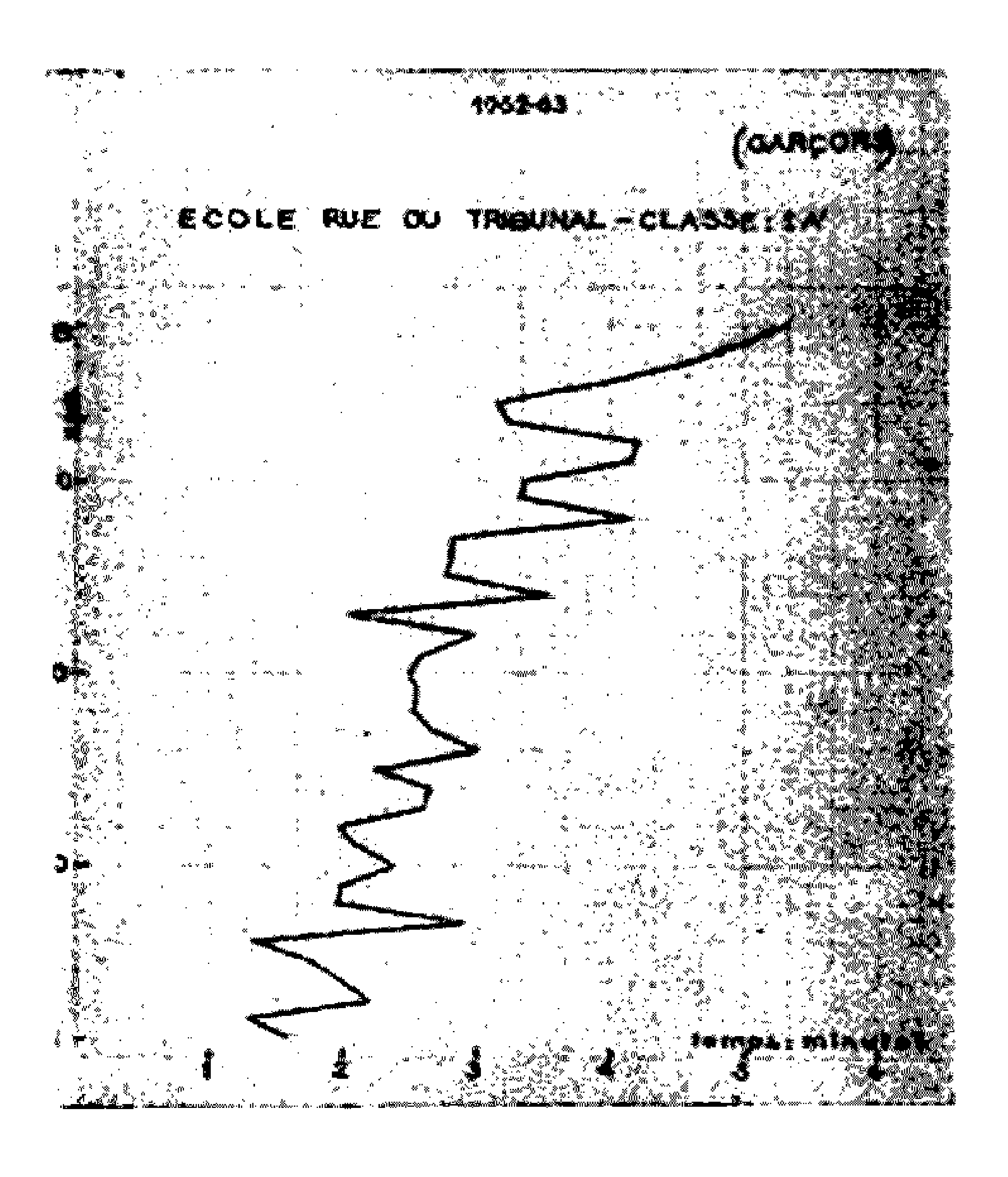
السنة الاولى (أ) من مدرسة دار الجلد وتقع هذه المدرسة داخل المدينة بالقرب من ساحة الحكومة . وجل تلاميذها من الطبقات المتوسطة من حيث المستوى الاقتصادى والمستوى الثقافى . يلاحظ فى هذا الفصل ان عدد الاطفال قد انحدر الى 29 كما ان الحدود الزمنية للتجربة قد انخفضت بصورة ملحوظة اذ هى تتراوح بين دقيقتين وسبع دقائق . من هذه المعطيات يمكن ان نتساءل : هلا يكون ارتفاع عدد التلاميذ فى الفصول مؤثرا لا فى نتائجهم المدرسية فحسب بل وكذلك فى مستواهم الذهنى ؟



(فتيـــان)

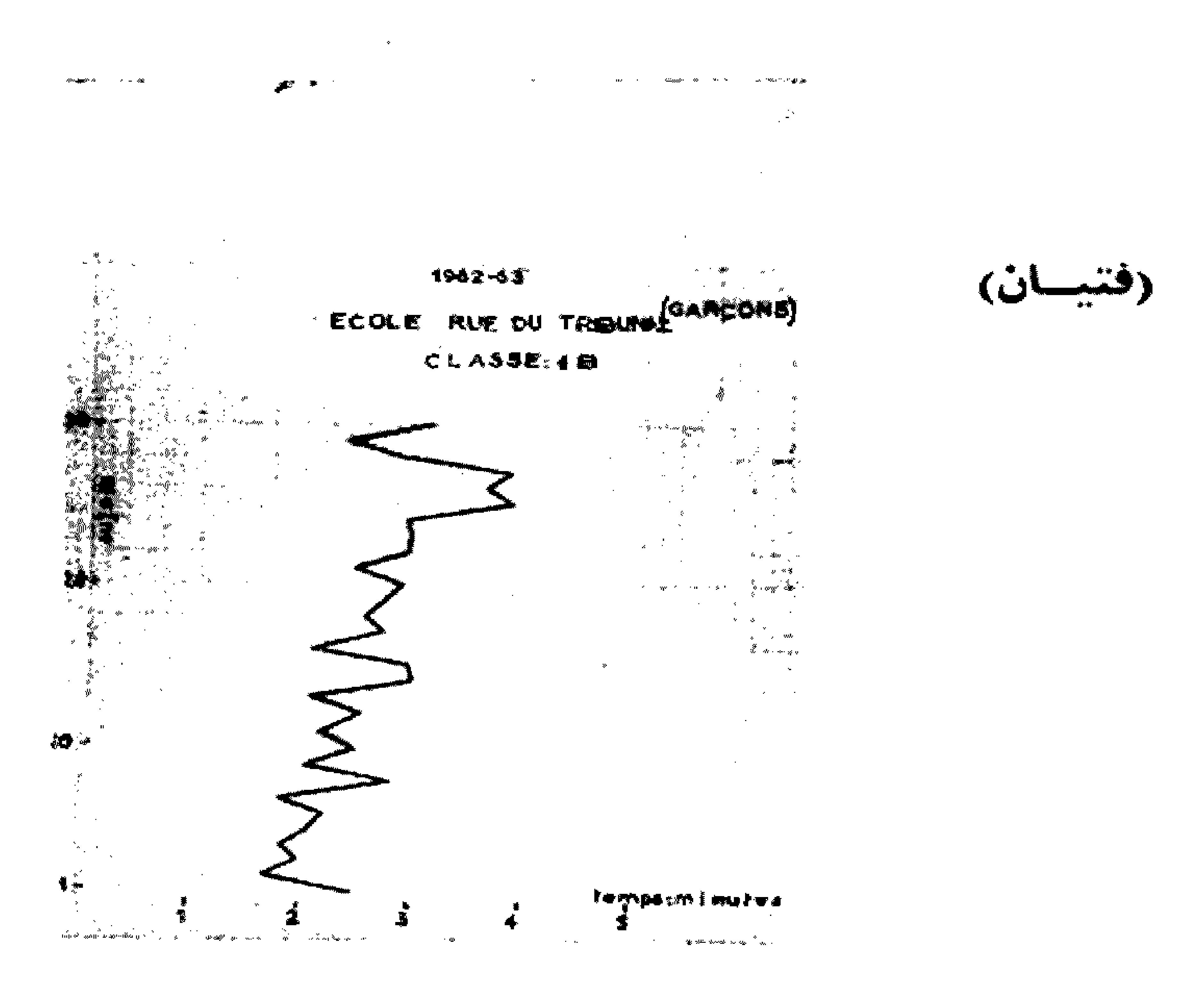
السنة الاولى (ب) من مدرسة نهج دار الجلد بلغ عدد التلاميذ فى هذا الفصل 31 . الا ان النتائج فى هذا الفصل احسن منهـا فى الفصل (أ) اذ تراوحت الحدود الزمنية للتجربـة بين دقيقتين الا سدس وخمس دقائق وسدس

(فتيــان)



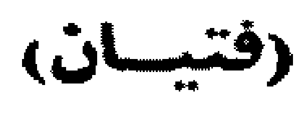
السنة الاولى (أ،) من مدرسة « نهج المحكمة » وهي اقدم مدرسة في تونس العاصمة . تحتل هذه المـدرسة قلب المـدينة العتيقة وجل تلاميذها من ابناء العائلات التونسية القديمـة التى وان تدهورت اوضاعها من الناحية الاقتصادية فقد بقيت محافظة على سننها الثقافية (1)

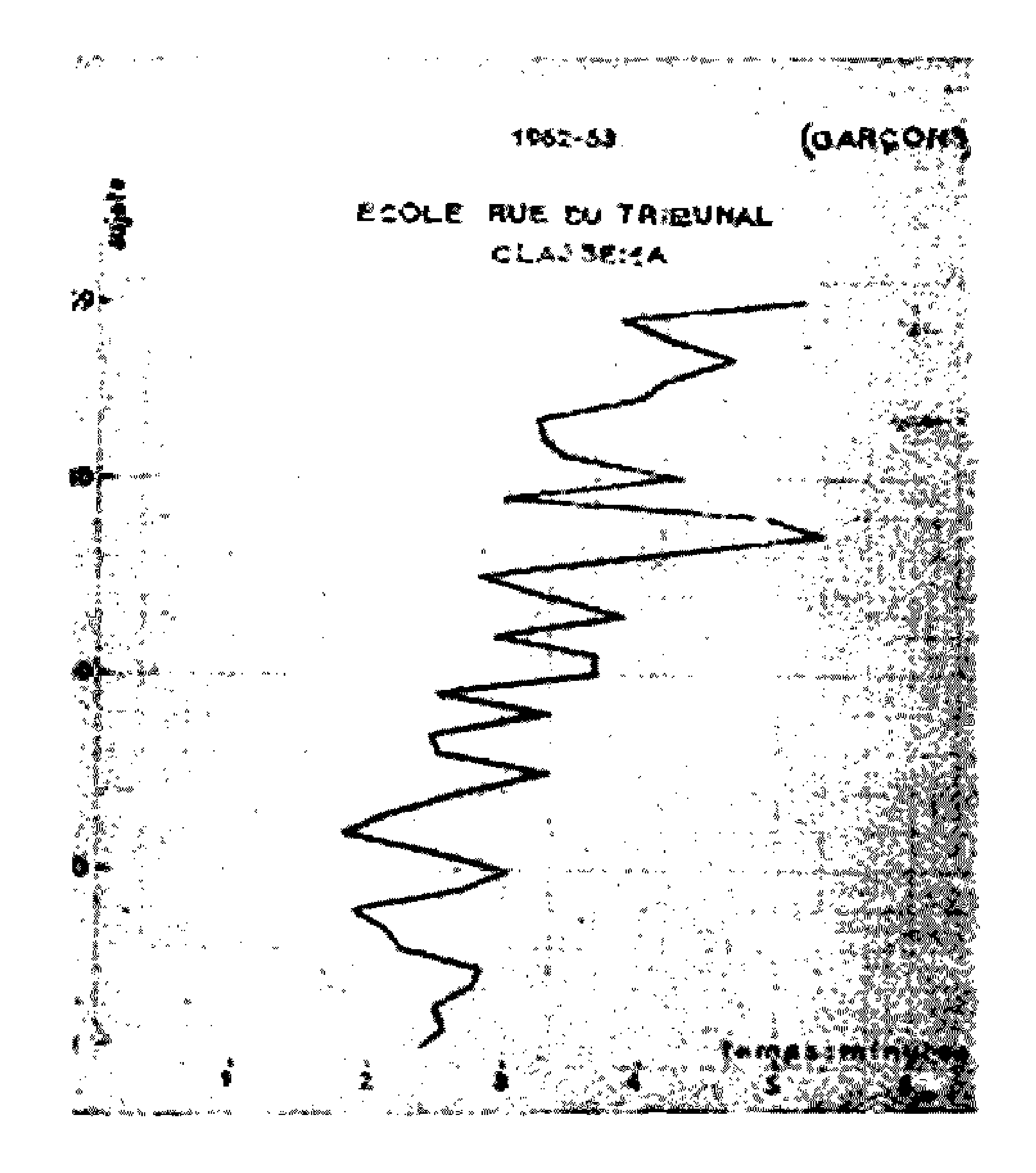
(1) نستخدم هذا اللفظ (لفظ ثقافة) فى معناه المتسع الشامل لكامل مظاهر حياة القوم



(فتيــان)

السنة الاولى (ب) من مدرسة « نهج المحكمة » يلاحظ بالاضافة الى ما تقدم ان الحدود الزمنية للتجربة اصبحت لا تقــارن بما هى عليه فى فصول مدرسة نهج على طراد . فهى تتراوح فى هذا الفصل بين دقيقة وثلثين واربع دقائق الا ثلث . عدد التلاميذ فى انخفاض .

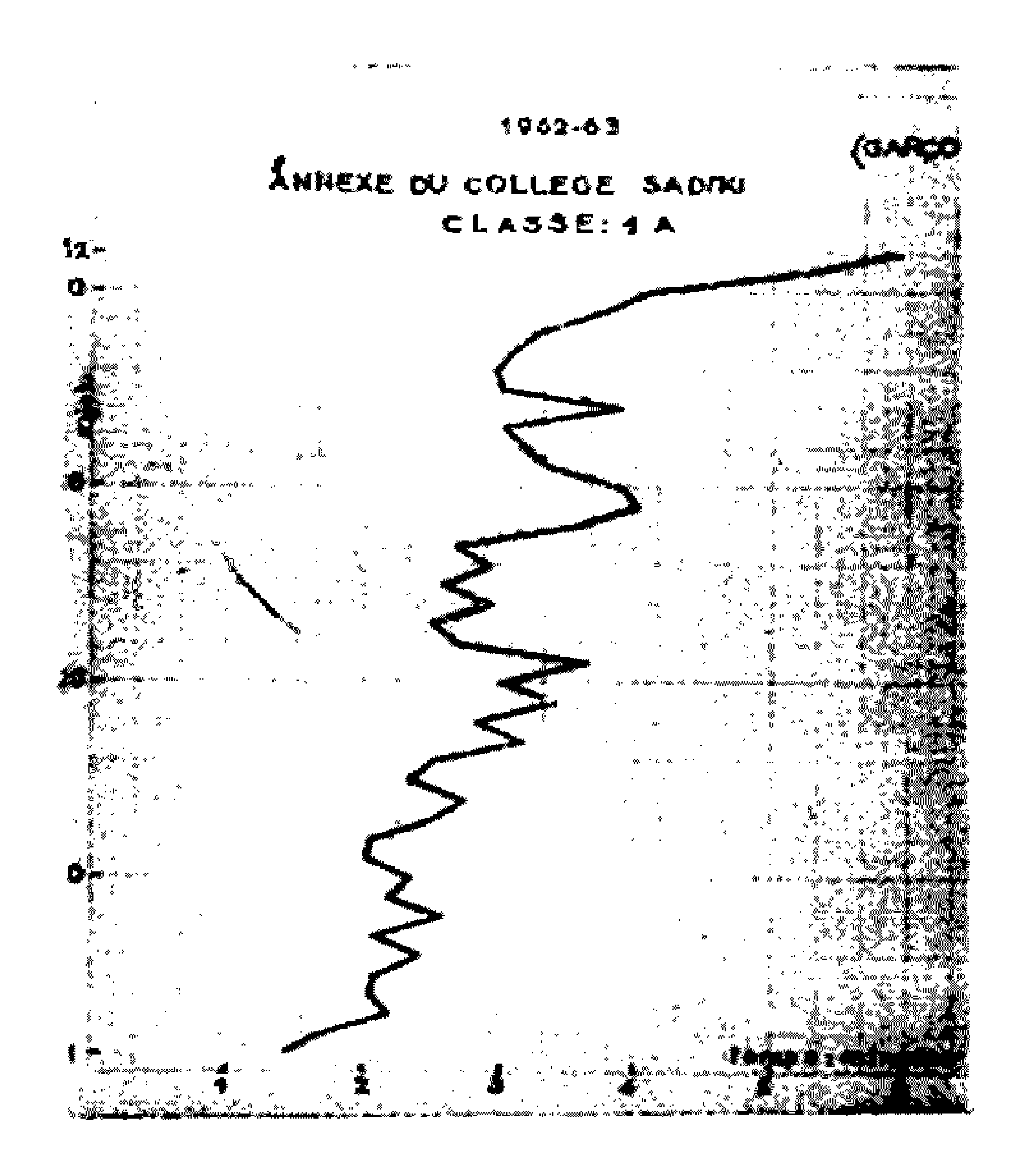




السنة الاولى (أ) من مدرسة نهج المحكمة .

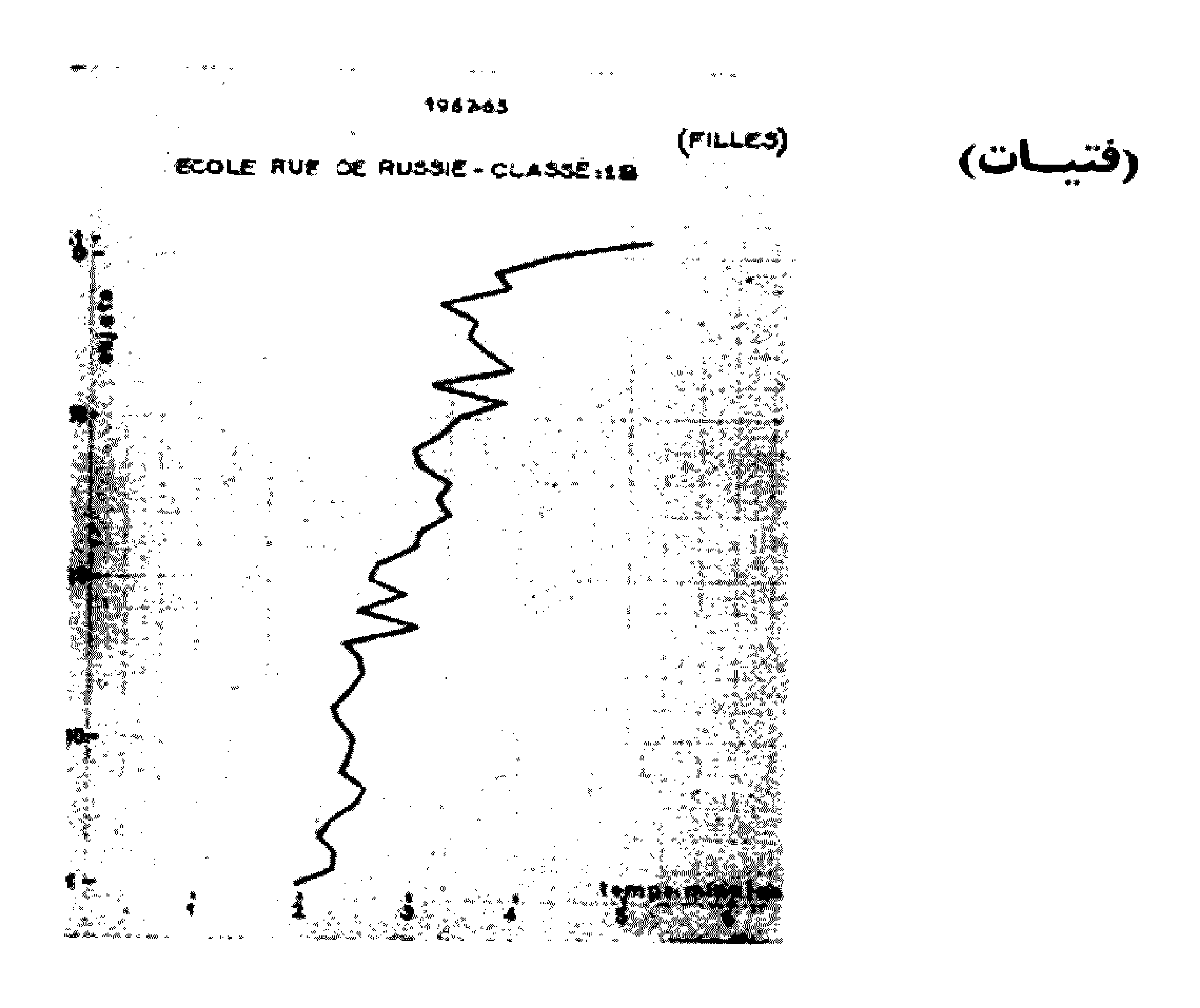
بالرغم من ارتفاع عدد التلاميـذ فى هذا الفصل (39) فان الحدود الزمنية للتجربة ما زالت حسنة ، اذ انهى التلميذ الاول (وهو يقع فى النقطة الثامنة من الخـط البيانى) تجربتـه قبل الدقيقة الثانية .

(فتيــان)



السنة الاولى (أ) من فرع المدرســة الصادقية وقد بلغ عــدد التلاميــذ فيه 42 فبالــرغم من ارتفاع عــدد التلاميذ نــلاحظ انه باستثناء التلميذين الاخيرين تبقى الحدود الزمنية للتجربة متراوحة بين دقيقة وثلث واربع دقائق . لكن هذا لا يؤدى الى مناقضة الراى الذى ابديناه بخصوص ارتفاع عدد التلاميذ فى الفصول وتاثير ذلــك فى المستوى الــذهنى اذ جل تلاميذ هذه المدرسة من عائلات لها مستوى ثقافى واقتصادى مرتفع .

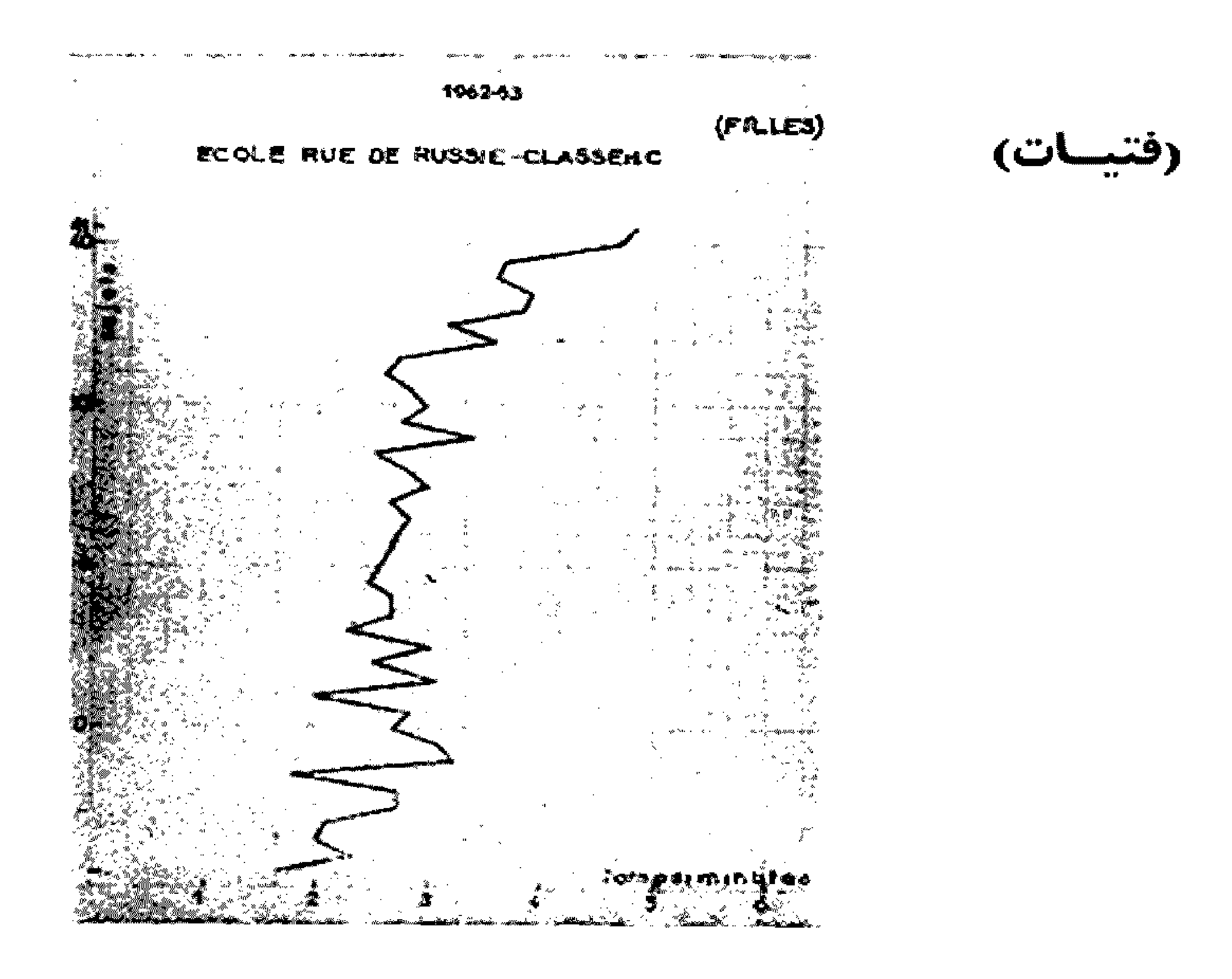
(فتيـات)



السنة الاولى (ب) من مدرسة نهج روسيا للفتيات وقد ارتفع عدد التلميذات فيه الى 41 .

يلاحظ بخصوص مدارس الفتيات ان التوزيع الجغرافى لهذه المدارس لا يطابق اختـلاف مستويات التلميـذات من الناحية الثقافية والاقتصادية كما هو الشان بالنسبة الى مدارس الفتيان اذ لا توجد مـدرسـة للفتيـات فى كل حى من احياء المدينة . فبالرغم من كل هذا جاءت الحدود الزمنية للتجربة تتراوح بـين دقيقتين وخمس دقائـق . وممـا يجدر بالمـلاحظة هو ان الخط البيانى اصبح قريبا من الخط العمودى وهذا يعنى انه لا يوجد اختلاف كبير بين التلميذات من حيث المستوى الذهنى بالرغم من الفروق الموجودة من حيث المستوى الاقتصـادى والمستوى الثقـافى .

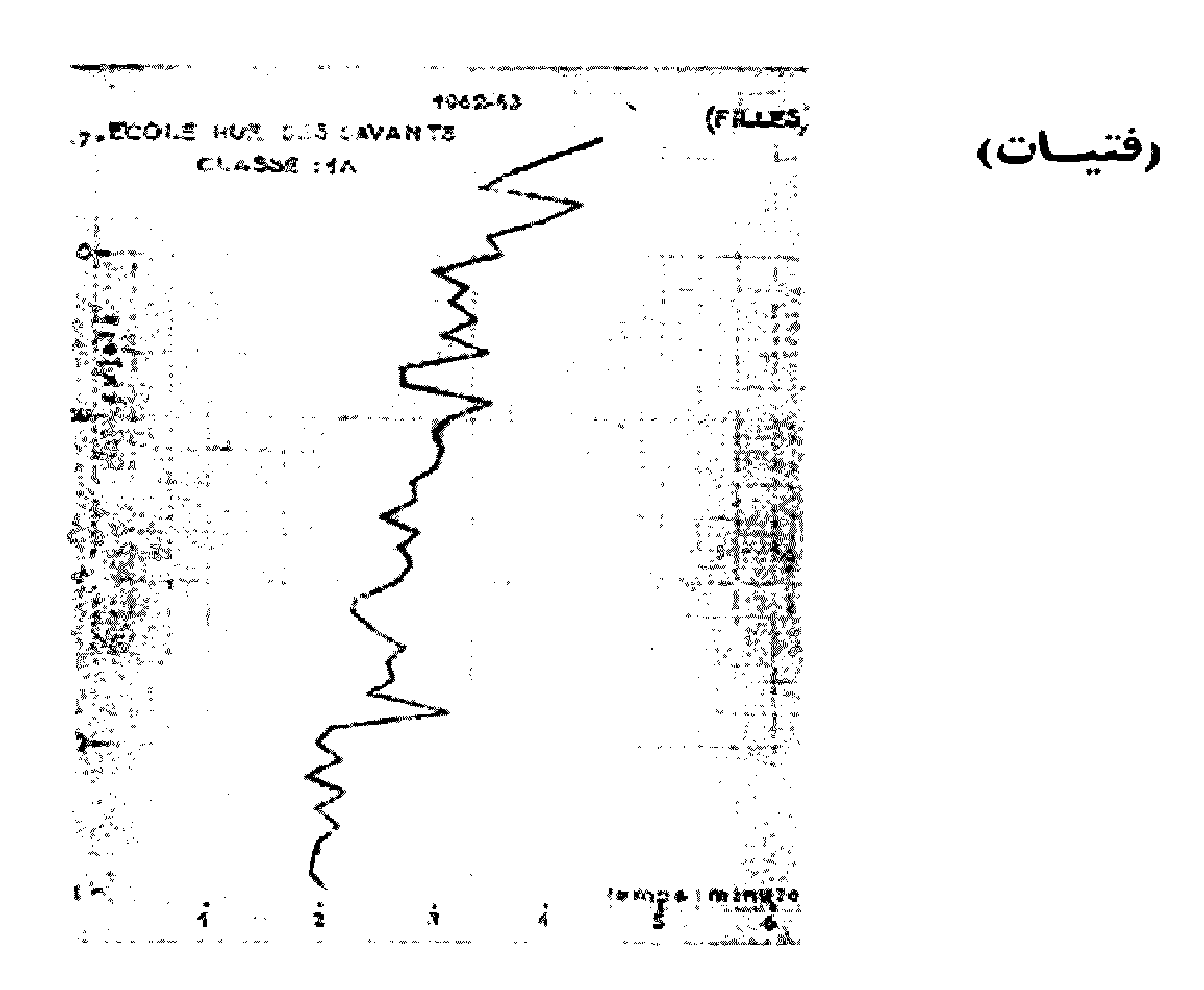
(فتيـــات)



السنة الاولى (ج) من مدرسة نهج روسيا للفتيات. ما قيل فى الفصل (ب) من هذه المدرسة يقال فى هذا الفصل مع الملاحظة ان التلميـــذة الاخيـــرة فى هذا الفصل تســـاوى من حيث زمن التجربة التلميذ الاول من السنة الاولى (ب) لمدرسة على طراد .

ثم ان النتائج الجملية لتلميذات مدرسة نهج روسيا (1) تدل عند مقارنتها بمختلف نتائج الفتيان على ان الفتيات يفقن الفتيان ومن بعيد بالرغم من ارتفاع عددهن فى الفصول .

(1) وكذلك نتائج تلميذات مدرسة نهج العلماء (انظر الصفحتين المواليتين)

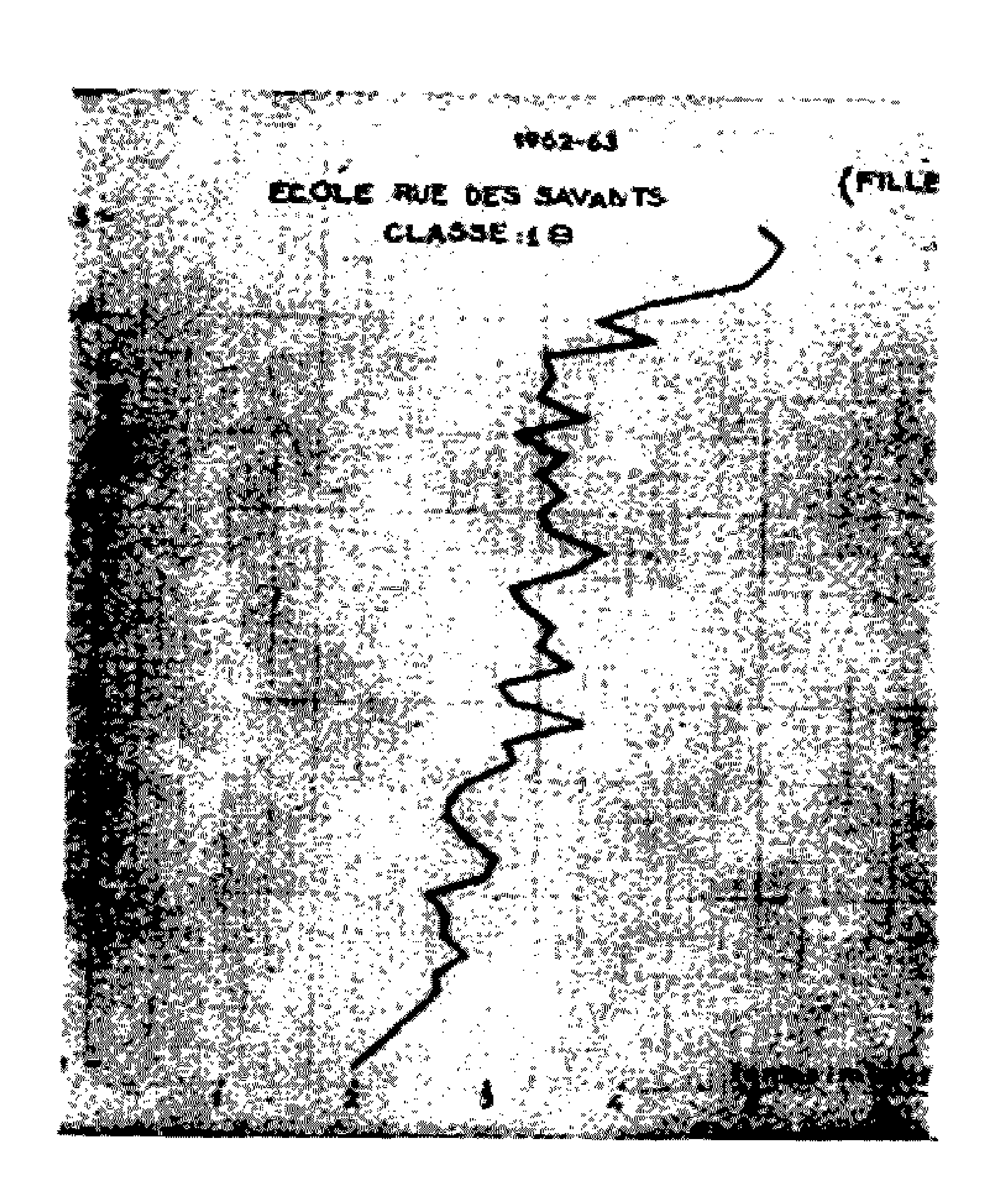


(فتيـات)

السنة الاولى (ج) من مدرسة نهج روسيا للفتيات . ما قبل التلميذات فيهـا 47 اى نفس العـدد الذى وجدنـاه فى فصول مدرسة على طراد .

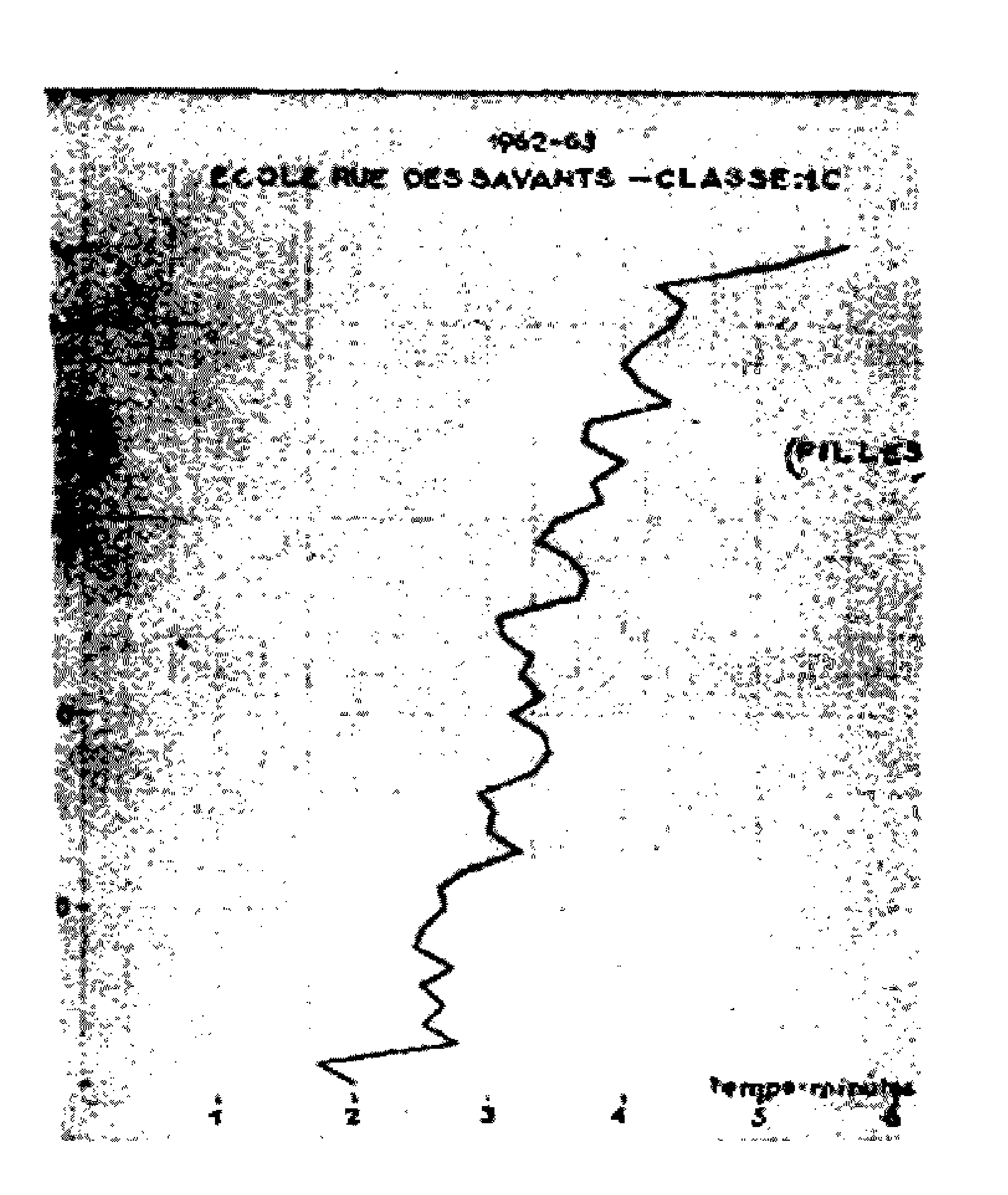
يلاحظ ان جل التلميذات فى هذه المدرسة فقيرات اذ اكثرهن من حى السيدة المنوبية . وبالرغم من ذلك فقد جاءت الحـدود الزمنية للتجربة تتراوح بين اقل من دقيقتين واربع دقائق وثلث فكانت اخيرتهن تفق اولهم فى مدرسة على طراد !

(فتيــات)



السنة الاولى (ب)من مدرسة نهج العلماء .
نفس الملاحظات المتقدمة .

(فتيــات)



السنة الاولى (ج) من مدرسة نهج العلماء .

يلاحظ ان الفــرق بين التلميــذة الاولى والتلميــذة الاخيرة ضئيل جدا . فهن مؤتلفات من حيث المستوى الذهنى بالرغم من اختلافهن من حيث المستوى الاقتصادى والمستوى الاجتماعى. ثم يلوح ان ارتفاع العدد فى الفصول لا يؤثر فيهن كما يؤثر فى الفتيان وفى ذلك دليل آخر على تفوقهن عليهم .

الشاذلى الفيتورى

ملخص اعمال الندوة التى انعقدت بتونس
من 31 مارس الى 3 افريل وموضوعها

مساهمة الطبقات الشعبية
فى الحركات القومية التحريرية بالغرب وبالشرق

بقلم : حمادى الشريف

الموضوع الذي اشتغلت هذه الندوة بطرقه موضوع جديد كاد الباحثون أن يهملوه فاذا ما وجدت دراسات في هذا الميدان فهي عامّة تقريبية لا ترضي العقل كلّ الرضا (مثل تطوّر افريقيا الشمالية السياسي في القرن الـ 20) أو محدودة إلى نقطة معيّنة (مثل تاريخ الحركة العمّالية ببلاد الصين ما بين الحربين العالميتين) . فنحن نجهل الكثير الآن من تاريخ الحركات التحريرية لا سيما بالبلدان غير الاروبية ونجهل بالخصوص تركيب تلك الحركات من حيث الجماعات أو الطبقات الاجتماعية التي ساهمت فيها وكيف ساهمت كل جماعة وأي صبغة ((Tonalité)) أعطتها إلى الحركة .

وكان لهذه الملاقاة غاية أخرى هي مقارنة الحركات التحريرية فيما بينها إذ اقتصر الباحثون حتى الآن لضرورة البحث على دراسات مضيّقة وجعلوا لتلك

الدراسات اطارا قوميّا أو جنسيّا ((Ethnique)) أو دينيّـا فيبدو لنا تاريـخ الحركات التحريرية مجزءا مقسّما إلى اقسام لا رابطة بينهـا في حين صار فيه تاريـخ البشريّة واحدا لا يتجزّأ فعلينا اليوم أن نقارن وأن نجعل صـلات بيـن تواريـخ الشعوب كـلّما أمـكـن ذلك وإلاّ بقيت معرفتنا ضئيلة غير شاملة .

ولـكـنّ هذا التـاريـخ العالمي الشامـل يبنـى في فتـرة أولى على دراسات محـدودة متعمـّقـة تشتغـل إذا أمـكـن بالشعبة السفـلى ((Cellule de base)) او بالهيـكـل الاعلى . ومثـل هذه الـدراسات المدقّقـة لا يمكـن أن يقـوم بها إلاّ مواطنون يعرفون البيئة فيصلون إلى المصادر الاوّلية المبعثرة ويفهمون العواطف العميقة مثل انطباع الوعـي القومـي في أعماق النفوس أو دور الدافع الدينـي مثلا . ولـكـن هذا لا يعنـي تحجير دراسة الحركات التحريرية على الاجانب مثل ما طالب به بعض المثلين في هذه الملاقاة باسم « الداخلية » (Intériorité) فالتّاريـخ ميدان فسيـح لـكـلّ من تعاطاه بجدّ ونزاهة ووفر له حظه من الدرس والبحث وإن صعب أو استحال تنـاول بعض الميادين على أجنبـي فهناك عـدّة مسائل يمكـن درسها لاي انسان (وقد سمعنا اثناء هذه الندوة مثلا موضوعا طرقـه اروبـيّ تحدّث فيه عن تأثير إزمة 1929 — 1934 على الحركـة القومية التونسيـة فـكـان له مـكـانه في تاريـخ هذه الحركـة) .

وأمّا أعمال الندوة فقد وزعت على خمس لجان :

1) لجنة العـالم العـربـي .

2) لجنـة العـالم الافـريقـي الاسود .

3) لجنـة آسيـا .

4) لجنة اروبّا .

5) لجنة امريكا اللاتينية .

وقد عرض على تلك اللجان 27 تقريرا استخلص منها رؤساء اللجان تقارير خاصّة بكلّ وحدة جغرافية وأخيرا جمعت النتائج في تقرير عام قدّمه السيد احمد عبد السلام . فما هي أهمّ النقط التي شغلت اهتمام المشاركين في الندوة ؟ .

I ــ مشكلة الوعي القومي :

مشكلة نشأة الوعي القومي نقطة بقيت غامضة لانّها لم تحض بدراسات ضافية لا سيما ببلدان افريقيا وآسيا ومعرفتنا لهذه المشكلة سطحية .

يبدو أنّه يوجد عند الشعوب المولّى عليها منذ البدء شعور بالقومية ولكنّه بدائي غير معبّر عنه وهو ما سمّي بالشعور القومي المبعثر ((Diffus)) فمثلا كان الاهالي بتونس حوالي 1881 يحسّون بانتمائهم إلى العالم التركي وإلى العالم الاسلامي وكانوا أيضا يشعرون بنوعيتهم ((Spécificité)) كأناس يعيشون في اطار ترابي معيّن ويخضعون لحكم وإدارة وجدا منذ قرون فيمكن لنا الجزم بوجود شعور قومي في تاريخ 1881 ولكنّه لم يعبّر عنه ولم يكوّن قوّة تعارض الاستعمار إلاّ بعد عشرات السنين . وعند غالب الشعوب نجد ذلك الاحساس الاوّلي بالانتماء إلى جمع خاصّ يتكلّم لغة واحدة أو له ماض واحد وله نفس الاعتقادات أو الاساطير . وقد لعبت دراسة التاريخ عند جميع الشعوب تقريبا أو دراسة اللغة عند الصقالبة مثلا أو الدين عند الإرلنديين مثلا دورا هامّا في تقوية العاطفة الوطنية .

وأهمّ من ذلك كانت المعارضة للاجنبيّ في البلدان المستعمرة إذ أحسّ شعوبها بالإستغلال الاقتصادي من طرف المستعمر وجرحت عواطفه ضرورة الخضوع إلى حكم الاجنبي . زد على ذلك الإزمات الاقتصادية التي عرفتها الدول الصناعية والتي كان لها أسوأ الاثر في حياة الشعوب المولىّ عليها (فلنأخذ مثل إزمة 1929 العالمية التي جرّت انخفاضا خطيرا في أسعار الموادّ الاولية والغذائية من حبوب وزيوت وغيرها . فتضاءلت مثلا أرباح الفلاّح وأحسّ بضنك متفاقم وقلّ شراؤه من المدن فمسّت الإزمة في نهاية الامر الفلاّح والتاجر والصانع وكان لذلك الامر نتائج سياسية هامّة إذ ظهرت في عدّة مستعمرات حركات قومية ثورية بعد سنة 1930 وكثرت القلاقل) .

وقام أيضا ضدّ الاجنبي العمّال لكونهم مستغلين من طرفه وكثيرا ما ألتقت المطالب القومية بالمطالب الاجتماعية كما أنّ أهل البوادي قاموا على المستعمر لكونه امتلك الاراضي (في شمال افريقيا مثلا) .

وآخر عنصر يفسّر نمو العاطفة القومية هو إدخال ثقافة وديانة اجنبيتين بالمستعمرات فكثيرا ما كان ذلك أهمّ عامل في انطلاق الوعي القومي .

ومن ناحية أخرى ما هي الوسائل التي انتشر بفضلها الشعور الوطني بين الجماهير فصار وعيا بأتمّ معنى الكلمة وأحدث قوّة كفاحية ناجعة ؟

تلك الوسائل متعدّدة فلنذكر مثل الجماعات الجنسيّة (Groupes ethniques) التي تكوّنت في بلاد الكامرون ونجيرية والتي الْتقتْ فيها النخب المثقّفة بالجماهير الشعبية . ولنذكر أيضا مثل الجماعات الدينيّة بافريقيا السوداء ودورها في تاريخ الحركات التحريرية وما كان للديانة من شأن في تاريخ تلك

الحركات بآسيا (حركة « البوكسر » (Boxers) بالصين في اواخر القرن 19 مثلا) وبالبلدان العربية وحتّى باروبا في القرن 19 (قاد مرارا رجال الكنيسة الصغار الحركة القومية بارلاندة وببولونيا مثلا) .

ولنذكر أخيرا الجماعات السياسية أو النقابية وكان لها أهمّ دور في تاريخ الحركات التحريرية مثل الحركات العمّالية باوروبّا في القرن 19 وحركات العمّال والفلاّحين بالشرق الاقصى في القرن 20 ومثل الاحزاب السياسية في البلدان العربية ومثل الحركات السياسية والنقّابية بافريقيا السوداء منذ عهد حديث .

2 — تركيب الحركات التحريرية الاجتماعي (Composition sociale) والعراقيل التي عطّلت نموّ تلك الحركات :

يعسر علينا الآن أن نتحدّث بدقّة عن العناصر الاجتماعية التي احتوت عليها الحركات التحريرية لانّ الدراسات قليلة في هذا الباب .

فلنذكر بصفة اجمالية الفوارق (Différenciations) الاقتصادية (بورجوازية وعمّال مثلا) والدينية (مسلمون ومسيحيون بلبنان مثلا) والجنسية (Ethniques) : ففي بلاد الرُووَنْدة بافريقيا السوداء مثلا نجد طبقة رعاة يعتبرون أسيادا وهم التُوتْسِي (Tutsi) وطبقة مستضعفة من الفلاّحين القارّين وهم الهُوتُو (Hutu) .

ولنذكر أيضا الفرق بين أهل البوادي وأهل المدن والدور التي لعبته المدن كمناطق اتّصال ممتازة (Zones privilégiées de contacts) يسهل فيها العمل الجماعي (L'action collective) وفي هذه المدن جماهير متنوّعة فمنها الاجراء

الذين يعملون في الحرف التقليدية (عمّال الدكاكين بالاسواق في البلدان العربية مثلا) ومنها عمّال الصناعات العصرية وعمّال الموانـي أو النقل أو عمّال المصالح الكبرى للمدن . ونجد أيضا في المدن عناصر بشرية دفعتها الحاجة من البوادي نحو تلك المدن ولا عمل قار لها مثل ما نجد عددا كبيرا يشغل المهن الحقيرة كالبائعين المتجوّلين في الشوارع الخ... .

أمّا أهل البوادي فينقسمون إلى عدّة أقسام منها المالكون للارض ومنها المستغلّون الصغار الذين لا يملكون الارض ومنها الاجراء الفلاحيون الخ...

وأمّا قادة الحركات التحريرية فهم مختلفون أيضا . فمنهم من لا ينتمي إلى الطبقات الشعبية مثل البورجوازية الكاتوليكية الإرلاندية المتعاطية التجارة أو المهن الحرّة والتي قادت فترة طويلة من الزمن الحركة التحريرية ببلادها ومثل رجال الدين بلبنان بعد سنة 1920 . وفي كلّ البلدان التي ناضلت من أجل تحريرها نلاحظ نفس التطوّر فيما يخصّ القادة فالاجيال الاولى من هؤلاء القادة ينتمون إلى الطبقات العليا ثمّ ينضاف إليهم أو يعوّضهم قادة أقرب من الشعب كالمثقّفين الناشئين في وسط بسيط (قادة الحزب الدستوري الجديد مثلا) أو كالضبّاط العسكريين بالشرق الاوسط والادنى أو كالمسيّرين النقّابيين (مثل فرحات حشّاد) .

ودور العمّال في الحركات التحريرية عظيم إذ الكثير منهم كان يعمل في خدمة الاجنبي (شخص أو شركة أو دولة) فكفاح العمّال النقابي « يزدوج اضافيا » بالكفاح السياسي وترمي العواطف القومية والمطالب المهنية إلى نفس الغاية .وحتّى إذا ما وجد تطاحن طبقي داخل المجموعة القومية ففي غالب الاحيان يكون للكفاح القومي الاولوية على الكفاح الاجتماعي (ولو أنّ

الاشتراكيين مبدئيًا يعارضون ذلك) فيكون « تفضيل الامر السياسي على الواقع الاقتصادي وتفضيل العنصر الديني على العنصر الاجتماعي وتغلّب المعنويات على الامور المادّية وتقديم الشعور القومي على الشعور الطبقي وقد استخلص هذه النتيجة تقارير ارلاندة وتونس وماليزيا .

وقد يكون التطاحن الطبقي أحيانا عقبة من العقبات في طريق الحركة التحريرية فتفضل الطبقات الشعبية الكفاح لاجل تحريرها من اضطهاد بني جنسها على الكفاح ضدّ المستعمر وهذا ما وقع مثلا بالرُووَندة حيث ناضل الفلاحون (Hutu) مستغليهم الرعاة (Tutsi) طويلا قبل أن تمنح بلجيكيا الرُووَنْدة استقلالها . وكان هذا أيضا موقف الحركات الاشتراكية الاروبية في القرن 19 إذ أعطيت الاولوية للكفاح الاجتماعي على الكفاح القومي (في بلدان اروبا الوسطى الخاضعة للحكم النمساوي مثلا) ولم يتغيّر موقف الاحزاب الاشتراكية إلاّ بعد سنة 1920 لمّا طلبت منها الرابطة العمّالية الثالثة (La 3e Internationale Ouvrière) أن تساهم في الكفاح القومي وأن تترأسه بتعاون مع « البورجوازية القومية » . وكلّما اقترن الكفاح التحريري القومي بالكفاح الاجتماعي أدّت الحركة في الفترة التي تلي الاستقلال إلى الاشتراكية (مثلا بالصين وببرمانيا وبالجزائر...) وإذا ما كانت غاية الكفاح الاستقلال السياسي فحسب كانت النتيجة إرجاع السيادة القومية بدون أن تصحبها تغييرات اقتصادية أو اجتماعية هامّة وبدون أن يُطالَب بالاستقلال الاقتصادي أو الثقافي إزاء الاجنبي مثل ما كان الحال بماليزيا .

وهناك عراقيل أخرى تعطّل الحركة التحريرية . فأحيانا تخشى الطبقات المحظوظة أن يتحوّل الكفاح الشعبي التحريري إلى كفاح اجتماعي فتنقص

من حدّته باسم النظام وباسم المِلكية وتكون أيضا أحيانا بعض الطبقات الشعبية هي التي تعرقل الحركة التحريرية كان مثلا جانب وافر من أصحاب الحرف والعمّال والفلاحين بالمانيا وبجنوب ايطاليا في القرن 19 متعلّقا بالذاتية الجهوية (Particularisme régional) وأبى أن ينضمّ الى حركة الوحدة القومية .

وكذلك يُعطّل الحركة انقسام المجتمع إلى جماعات، جنسيّة مختلفة (باوربا الوسطى وبالخصوص بمقدونيا مثلا) أو إلى جماعات قبليّة متعادية (قبائل البانتو (Bantous) بافريقيا الوسطى مثلا) أو إلى جماعات دينية متنافرة (بالهند مثلا) . وقد تكون الهجرة عنصر إرهاق للحركة القومية (بارلاندة وببولونيا في القرن الا 19) .

3 ـــ أشكال العمل ومشاكل التضامن الفكري والعلمي :

بعد أن تعرّضنا إلى مشكلة الوعي القومي وإلى تركيب الحركات التحريرية من عناصر اجتماعية ساهمت فيها أو عرقلت سيرها علينا أن نتأمّل في الاشكال التي اتّخذها العمل التحريري أو الوسائل التي عمد إليها .

هناك وسائل سلمية ووسائل عنيفة ومعظم الحركات التحريرية عرفت أطوارا مختلفة أوّلها طور استعمال القوة الفوضوية (Inorganisée) (ومثل ذلك واقعة الجلاّز سنة 1911 بتونس) يليه طور الكفاح السلمي ثمّ طور استخدام القوّة المنظمّة (مثل حوادث 1952 ـــ 1954 بالقطر التونسي) . ويبدو أن النجاح قلّما يحرز عليه بدون استعمال العنف .

ويمكن لنا أن نقسّم أشكال العمل إلى أعمال تلقائية (Actions spontanées) وإلى أعمال منظّمة .

أمّا الاعمال التلقائية فهي ناجمة عن مذاهب كامنة في الاذهان وتنقسم الى أعمال سلمية وإلى أعمال تعسّفية . فالاعمال السلمية تظهر في طور تكوين الوعي القومي أو في طور تقويته وتغلب في البلدان المتطوّرة ذات المستوى الثقافي المتقدّم ومنها تأسيس مدارس وطنية ونشوء أدب شعبي (أغان وطنية ومسرحيات) والقيام باجتماعات عامّة وبخطب حماسية ومنها الاحتجاجات الكتابية أو العملية (تشييع جنازة وطني مثلا) والاضرابات المدرسيّة وبعث مؤسّسات اقتصادية وطنية (تعاضديات أو شركات تعاون أو معامل صناعية...) ومنها مقاطعة البضائع الاجنبية (Boycott) ومنها الامتناع عن دفع الضرائب...

أمّا الاعمال التعسّفية ذات الصبغة الفوضوية فهي الاعتداءات (Attentats) وأعمال التخريب أو الحرق والتمرّد الجماعي... وكلّ تلك الاعمال تدلّ على نفسية مقاومة متأصّلة لها نتائج إيجابية (تهديد المستعمر) ونتائج سلبية (إذ أنّها تبرّر أعمال القمع الشديدة) .

وأمّا الاعمال المنظّمة فهي تنجم عن مذاهب معلن عنها وتقوم بايعاز من المنظّمات السياسية أو النقابية . وهي ترمي إذا ما كانت سلمية إلى تنظيم تلقائية الجماهير (Organisation de la spontanéité populaire) بتلقينها ثقافة سياسية بفضل الدعاية المباشرة وبفضل الصحافة وترمي أيضا إلى جمع تلك الجماهير داخل اطارات مثل المنظّمات الحزبية أو النقابات التي تعاضد الاحزاب السياسية . وبجانب العمل المستمرّ تقتنع بعض الظروف لبعث حركات استثنائية مثل الاحزاب ومقاطعة الانتخابات .

أمّا الاعمال المنظّمة العنيفـة فهـي تمتـدُّ من الاعتـداءات الفرديـة إلى الثورات الجماعية ودراستها تبرز متانة الروابط بين القادة والمقاومين المسلّحيـن وبقيـة الشعـب .

وتبيّـن أيضا على ضوء الدراسات الجهوية (في البلدان العربية والآسياويـة) أنّ الحركة التحـريريـة عندمـا تبلـغ حـدّاً معيّنـا سُمّـي « بنقطة الانقطـاع » (Point de rupture) تجرُّ معها الشعب بأكمله وبجميـع طبقاته في كفاح نهايته بلوغ الغاية المقصودة .

ولوحظ تعاون ما بين البلدان المتقاربة مثل البلدان العربية أو الآسيـاوية . ففـي آسيـا مثـلا صـار اليابـان بطل حركـة عاطفيـة سميّـت « بالآسيـاويـة » (Panasiatisme) وقـد مسّت الطبقـات الشعبيـة بعـد انتصار اليـابـان على روسيـا سنة 1905 وصار اليابان يعتبر مثلا أعلى أو قدوة في البلدان الآسياوية المولىّ عليها.

4 — محـاولة تقسيـم زمنـي (Esquisse de périodisation) .

نلاحظ أوّلا تفاقم الـدور الذي لعبتـه الجماهير الشعبيـة في الحـركـات التحريرية طيلة القرن الـ19 والنصف الاوّل من القرن الـ20 إذن صارت تلك الحركات ديمقراطية شيئا فشيئا . ونلاحظ أيضا أنّ لتلك الحركات سيرا منكسرا (Saccadé) أثّرت فيه أحداث خارجية مثل الحروب العالمية والازمات الاقتصادية العالمية .

ويمكـن لنا من ناحية أخرى أن نفرّق بين فترتين هامتين :

1) من سنة 1776 (تاريـخ استقلال الولايات المتحدة الاميركـية) إلى 1905 (تاريـخ انتصار اليابـان على الروسيا) كانت الحـركـة القومية قويّة في اميركـا

واوربّا وقد أحرزت على عدّة انتصارات بينما البلدان الآسياوية والافريقية كانت في حالة تقهقر وانهزام .

2) من سنة 1905 إلى يومنا هذا سجّلت اوربّا انهزامات عديدة والشعوب الافريقية والآسياوية انتصارات متوالية .

وفي الخلاصة علينا أن نلفت الانظار إلى أهمية الموضوع الذي طرقته هذه الندوة وإلى افتقارنا إلى بحوث ضافية في هذا الميدان فعلى مواطني البلدان التي عرفت الحركات التحريرية أن يقوموا هم أنفسهم بالعمل ويهمُّ هذا الامر خصوصا مواطني بلدان افريقيا وآسيا .

وسيطرق موضوع (مساهمة الطبقات الشعبية في الحركات التحريرية) من جديد اثناء مؤتمر العلوم التاريخية الذي سينعقد بفينّة في صيف سنة 1965 فأملنا أن تكون الدراسات أوفر وأغزر .

محمد الشريف

نقد الكتب

أبو الحسن الحصري القيرواني

تاليف محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيي

(530 ص ص متوسط) مكتبة المنار تونس 1963

علم من أعلام الادب العربي المعدودين تبرز صورته عملاقيّة في هذا الكتاب الذي قضى في إعداده م. المرزوقي ثم ج. بن الحاج يحيى زمنا غير قصير طال أثناءه انتظار أهل العلم والادب فما خاب أمل الآمل ولا ضاع سعي من سعى فأعيد إلى هذا الاديب الفذّ ضياؤه الساطع بعد أفول نجمه قرونا .

والكتاب تعريف بالرجل ومحاولة جمع لما بقي من آثاره الادبيّة من شعر ونثر ومن هذه الآثار استخرج المؤلّفان ما اكتملت به صورة علي الحصري وقد كانت ذاوية في ما ترجم به له القدماء خاصّة ابن بسّام في الذخيرة .

ولد علي الحصري حوالي سنة 420 بالقيروان ونزح عنها عند خرابها على أيدي أعراب بني هلال فقصد سبتة ثمّ طوّف بالاندلس يستجلبه ملوك طوائفها بأسنى الهدايا ويعبّ طلاّبها من بحر أدبه وعلومه اللّغوية والقرآنية ويحترق أدباؤها وعلماؤها حسدا من أجله فيكيدون له المكائد فيقارعهم رادّا هاجيا

متحدّيا في نخوة وصلف وكبر كبير إلى ان هدّ الدّهر من قواه بوفاة أعزّ أبنائه عليه عبد الغنـيّ حوالي سنة 475 بعد غدر زوجه وفرارها منه وكان بها شغوفا فاجتاز العدوة سنة 483 كسير القلب حسيرا واستوطن طنجة يعلّم القرآن والقراءات إلى ان مـات بهـا سنة 488 .

تركـت هذه الاحداث في نفس الشاعر الـكفيف أثرا ذكت له حساسيّته لهيبا أجّاجا فبكـى القيروان في رقيق الحنين الى الاوطان ودوت لمدائحه وأهاجيه بلاطات ملوك الطوائف وتهاطلت على علماء المغرب والاندلس تعاليمه وألغـازه العلميّة نثرا ونظمـا فاستحـقّ لقب « الاستـاذ الاعلى » (1) . ولـكـن الحـدث الاعظم في حياة الرجل وفنّ الاديب هو موت ابنه عبد الغنـيّ صبيّا يافعا فتفطّر له كبده واحترقت مهجته وراح يندب رزءه الجلل ويعدّد خصال صبيّه الفـذّ ويستعرض أحداث حياته وعزّ آبائه وحسد حسّاده وصموده في وجههم وظهـوره عليهم وفي كـلّ ذلك كـلمه يدمـى فتعلو شـكـواه في أنّة لا تنتهـي ويذكـر أنّ الله أوصى بالصبر فيجزع لجزعه ويستغفر من ذنبه هذا في نثر مسجّع يبتدئه بالوعظ والإرشاد والزهد ويختمه بالابتهال وطلب العفو ويضمّ القسمين النّثر ثم الشعر في كـتاب يجمعه بعد خمس سنوات من وفاة ابنه ويسمّيه كـتـاب (2) « اقتراح القريـح واجتراح الجريح » (3) وينبذ ما عدا ذلك ممّا قاله من أشعـار فلا يحفل بها ولا يعتنـي بجمعها بل تركـها — كما قال — « لمن يعيها فيسرقها

(1) ابن قنفذ ص 39 .

(2) لا « ديوان » كما ينعته المؤلفان . وسنرى انهما لم يفطنا الى قسمه المنثور واعتقداه جزءا من المقدمة الثالثة فظنا المحتوى شعرا صرفا .

(3) من ص 243 الى ص 454 وذيله الى ص 490 .

أو يدّعيها يرثني بغير نسب ويملكها بغير نشب » (4) فكانت هذه المصيبة في ابنه سببا في ضياع أشعار خمسين سنة تقريبا « سحر بها العقول » على حدّ قوله هو (5) فرزيء فيها الادب العربي ولم يبق منها إلاّ شذرات مبعثرة في المخطوطات والمطبوعات جهد المؤلفان في جمع شيء منها (6) .

ووصلنا كذلك « معشّرات » علي الحصري (7) وهو فنٌ ينظم فيه الشاعر قصائد على عدد حروف الهجاء كلٍ قصيدة ذات أبيات عشرة قافيتها وحرفها الاول أحد حروف المعجم . وموضوعها واحد وهو عند الحصري الغزل .

ويذهب بنا الظنّ الكبير الى أنها من وحي مأساته بفرار زوجه الشابّة عنه هجرته لشيبه وكان يحبها الى حدّ الهيام . فاذا صحّ افتراضنا هذا كانت « معشّرات» الحصري من الشعر الوجداني الصادق الناشيء عن صبابة نعلم صحّتها ومدى عنفها فتكون بذلك من أروع ما عرفه الادب العربي من أغاني الغزل الصافي الكئيب .

فشعر علي الحصري في « المعشرات » و « افتراح القريح واجتراح الجريح» يكشف لنا عن شاعر وجداني عديم النظير في الادب العربي فلا نعرف من كان مثله صادق الصبابة واللّوعة في شعر ضمّ قرابة ثلاثة آلاف بيت هو كلّه أنّة متواصلة من قلب جريح لا يعرف لانسكاب عاطفته الحرّى نضوبا . وهكذا يجتمع لدى الحصري الشاعر لوعة العاشق واحتراق الثاكل وبراعة لغويّ

(4) ص 264 — . (5) ص 264 .
(6) « المتفرقات » من ص 103 الى ص 149 .
(7) من ص 205 الى ص 240 . يقابل كلمة « معشرات » بالفرنسية « dizains » لا « dizaines » كما جاء في مقدمة المؤلفين بالفرنسية (ص 521)
وقد نسب بروكلمان « المعشرات » خطأ الى ابراهيم الحصرى :
Brockelmann, G. I, 267.

خضعت لمشيئته العربيّة وأسرارها وقوافيها وأوزانها فينشأ من كـلّ ذلك شعــر « المعشّرات » و« افتراح القريـح واجتراح الجريـح » آية من آيات الفنّ البشري لا العـربـيّ فحسب .

فالآن حان لادباء العربيّة ان يراجعوا النظر في منزلة رثاء المهلهل والخنساء وغزل جميل وصريـع الغوانـي وغيرهم من فحول الشعر « الغنائـيّ » عند العرب حتى يتبوّأ شاعر القيروان الـكـفيف منزلة أزاحه عنها حسد الاتراب وتعصّـب الادباء أمثال ابن بسّام وعبد الواحد المراكـشـي ومرّ الاحقاب وعبث الإهمـال والنسيـــان .

ولا شكّ أنّ سعي مؤلّفـي كـتاب « أبـي الحسن الحصري القيروانـي » سيساهـم في هذا البعـث .

لقد أشرنا الى جهدهما في جمع تراثه ولم يقصرا عملهما على التنقيـب على آثار الحصري فجمعا من المطبوعات والمخطوطات ما استطاعا من شعره ونثره (8) بل حلّلا شعره — خاصّة في « اقتراح القريـح واجتراح الجريـح » — ليثبتا منه بعض صورة الرجل وحياته ورسمات من فنّه وأدبه .

غير أنّ منزلة الحصري التـي زعمناها خطيرة في الادب العربـي وتقديرنـا لقيمة هذا الـكـتاب يفرضان علينا — إتماما للتعريف بالحصري وبالـكـتاب — أن نتناول كـتاب م. المرزوقـي وج. بن الحاج يحيى بشـيء من النقد نرجو ألاّ يريا فيه الا مشاركـة متواضعة في ما سمّيناه ببعث لشخصيّة علي الحصري .

(8) لم يبق من رسائل الحصرى الا فقرات قليلة (ص ص 93 — 98) .

وأوّل ما يضمن للاديب او العالم حقّه من الشهرة والصيت ان يعرف باسمه خوف الالتباس . فلِم لم يسمّ الكتاب « علي الحصري » عوض « أبي الحسن الحصري » ؟ وشهرة شاعرنا في كتب الادب وعند الادباء باسمه لا بكنيته وجرى اسمه على الالسن كما جرى اسم سميّه ابراهيم وبذلك يكون التمييز بينهما فيقال علي الحصري كما يقال ابراهيم الحصري . والمؤلفان ممّن لاحظ اضطراب النسّاخ (9) فنسبت مؤلّفات له الى ابراهيم صاحب « زهر الآداب ». وقد تسمّى شاعرنا مرّتين على الاقلّ في شعره باسمه « علي » آخر كتاب « اقتراح القريح واجتراح الجريح » وفي أواخر « ذيله » كأنّه يمضي شعره باسمه على عادة بعض الشعراء فيقول في آخر بيت من « الاقتراح » : (10)

قد ثوى عبد الغني بطوبى فهل العقبى غدا **لعلي**

وفي البيت الثالث قبل الاخير من ذيل « اقتراح القريح... » (11)

يشفع عبد الغني حتى يأمن من خوفه **عليّ**

ثم إن المقدمة (88 صحيفة) على ما فيها من تحقيقات أشرنا إلى أهمّيّتها فقد تفقد من قيمتها العلميّة لجمعها بين الهامّ وما هو معروف متداول بين الناس لم يرجعا فيه الى الامّهات بل غالبا الى دراسات بسيطة تحفظها المكتبات والاذهان وكذلك لكثرة العناوين وبعدها عن محتواها أحيانا وأخيرا لاضطراب ترتيب مواضيع المقدّمة . ففي أثناء ترجمة الحصري جاء الحديث عن شعره ثم

---

(9) ص 21 . ويستمر الاضطراب الى الآن (راجع تعليقات عدد 7 اعلاه في غلط بروكلمان Brockelmann)

(10) ص 454

(11) ص 490

رجع الى سياق أخباره فمؤلفاته فأهله فشعره من جديد فصفاته قبل ان يعاد بنا الى تراثه في مقدّمة كـلّ ممّا نشِر من مؤلفاته . فهلاّ كـان الحديث عن الـرجـل اوّلا . ثم الاديب وتراثه ثانيا . وآخرا هذا التراث ذاته ينشر وحدةً كاملة ؟

ويتجاوز الاضطراب مقدّمة الـكـتاب إلى الاشعار فتفصل قصيدة « يـا ليلَ الصّبِّ » عن المتفرّقات الاخرى وتتبعها معارضات الشعراء لها كـلُّ ذلك في غضون أشعار الحصري . والاجدر لو أثبِت ما ليس للحصري في ملحق إثر شعر الحصري وبذلك لا تـكـون العودة ثانية الى المعارضات في نهاية الـكـتـاب عندما عثِر على معارضتين لم تثبتا في محلّهما (12) .

فالتنسيق أهمّ شروط نشر النصوص . وما سمحنا لانفسنا بهذه الملاحظات في ما نعتبره جزئيّات لا كـبير حرج في التهاون فيها إلا لعلمنا انّ المؤلّفين شغفا بالنشر وهمـا دائبـان عليـه .

ومن أسس نشر النصوص — والاشعار خاصّة — الاعتناء بالفهارس . ولا سبيل إلى الإفادة من كـتاب دونها . وقد أعدّ منها الناشران خمسة وينقصهـا فهـرس القـوافي . ولعلّ عذرهمـا ان جلّ قصائد الـكـتاب جاءت على حروف المعجم . لـكـن بعض هذه الاشعار جاء على الترتيب « الشرقـي » او العصـري لحروف الهجاء — كالمعشّرات مثلا — والبعض الآخر على الترتيب « المغربـي » (في « اقتراح القريـح... » وذيله) ثم إن « المتفرِّقـات » لم تأت على حروف المعجم

(12) على ان اثبات ما سمى بمعارضات « يا ليل الصب » فى هذا الكتاب قد لا يكون من التوفيق : لتفاوت قيمة اشعارها وبعدها عن قصيدة الحصرى احيانا كثيرة ولانه كان قد جمع عـدد منها وطبع بعد (من ذلـك ما اشار اليه بروكلمان Brockelmann, S. I, 472)

اما الفهرس الرابـع — وهو عسير الاستعمال قليل الفائدة — فقد ضـمّ الـكـتب والمراجـع على حـروف المعجـم بدون فصل بين هذه وتلك ولا تـرتيب حسب القيمة او النوع او غير ذلك ممّا هو القاعدة في فهارس المؤلفات . وأهمل ذكـر الطبعات وأسماء المؤلّفين أحيانا وغيّرت أسماء مؤلّفات أحيانا أخـرى كالرسائل النقديّة لابن شرف (!) مثلا .

ولـكـنّ أكـبـر خلـل في هذا البـاب — زيـادة على أن مـراجـع البحث الاساسية لم تذكـر على حـدة — أن هذه المراجـع غير كاملة وهو ما لا يجـوز في كـتاب يروم الإلمام بشخصيّة شاعر وبما حفـظ من أشعاره . فبصرف النظر عن شتّى كـتب الادب والمجموعـات الشعـريّة التـي لا تحصى ومنهـا ما قد يحوي البيت او الابيات من شعر علي الحصري فالنظر السريـع الى هذا الفهرس يتبيّن منـه خلـوّه من المصـادر الاجنبيّة . فلم يذكـر كـتـاب بروكـلمـان Brockelmann (13) وإن خلا من الحـديث عن علي الحصري لـكـنـه يتعـرّض — وإن كان مخطئا في ذلك — إلى بعض مؤلفاته في ترجمة إبراهيم الحصري . ولـم تـذكـر أطـروحـة الاستـاذ بيـريس *H. Pérès* ولا الاستـاذ ر.هـ. إدريس R. H. Idris ومن الـكـتب العربيّة كـثيـر نشير من بينهـا الى مسالك الابصـار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي والمطرب لابن دحية ووفيات ابن قنفد وبغية الوعاة للسيوطـي وعنوان المطربات والمرقصات لابن سعيد المغربـي ودار الطراز لابن سناء الملك حيث نعلم انّ الحصري كان أستاذا في فنّ الموشّحات الـخ...

(13) على انه استشهد بقول له (ص 67 تعليق عدد 5) بدون بيان محل كلامه من الكتاب

ويتحتّم التنقيب على جميعها والرجوع اليها وإن انحصرت فائدتها في اختلاف روايات الاشعار ممّا له شأن في نشر النصوص .

والمطالع للكتاب تعتريه حيرة غير قليلة للغموض الذي يسود أمر مخطوطات تراث علي الحصري . فانّ استعمال الناشرين بعضها وعدم الوقوف على البعض الآخر او — على أقلّ تقدير — قلّة إفصاحهما في هذا الباب الخطير ممّا يثير مشاكل محرجة حول نشر هذا التراث .

فمن ذلك ان القارىء لا يعلم بعد مطالعة الكتاب هل « الرائية » في قراءة نافع موجودة أم لا . كاملة أو غير كاملة . فلم تنشر في الكتاب ولا شيء منها بينما يفهم من بحث الناشرين حولها انها موجودة عند بعض شيوخ تونس(14) كما أشارا الى شروحها . أفلم يبق شيء منها في هذه الشروح فيثبت ؟

وينسب المستشرق الالماني بروكلمان Brockelmann لابراهيم الحصري في ترجمة هذا الاديب قصيدة على القيروان مخطوطة بالاسكوريال Escurial ولا نشكّ في أنها لعلي لا لإبراهيم الحصري — إن صحّ وجودها — وكنّا لاحظنا ان الناشرين لم يعتمدا بروكلمان .

اما « المستحسن من الاشعار » (لا « مستحسن الاشعار ») فقد يكون المجموعة التي يسمّيها ابن قنفذ « كتاب القصائد » وقد أشرنا الى ان الناشرين لم يقفا على كتاب هذا المؤلف (15) .

(14) انظر ص 67 تعليق عدد 4 . تجرانا اثناء محادثة شخصية مع الشيخ الشاذلي النيفر فطلبنا اليه بالحاح ان ينشر قصيدة على الحصرى فى قراءة نافع فوعد بذلك .

(15) « كتاب الوفيات » لابن قنفذ المعروف بابن الخطيب القسنطينى ط . الاستاذ بيريس H. Pérès الجزائر (بلا تاريخ) ص 39 .

ثم إن الاعتماد على المخطوطة المصريّة في « المعشّرات » مع مجرّد الإشارة في الحاشية الى رواية المخطوطة التونسيّة لا يبرّره ما أثبته الناشران من كثرة رداءة التونسيّة بل كان من الواجب إثبات الرواية الصحيحة سواء كانت عن المصرية او عن التونسية مع الإشارة في الحاشية الى الاخرى الملغاة . ففـي أبيات كثيرة أثبتت رواية رديئة — في نظرنا — بينما الجيّدة هـي المتروكـة في الحاشية (16) .

ولا يسع النـاقد الا الاعتـراف بالجميـل للناشرين على ما بذلاه من جهـد مخلص في إبراز « اقتراح القريـح واجتراح الجريـح » في صورة كثيرة الجـودة رغم رداءة المخطوطة الوحيدة التـي اعتمداها . وعيوبها وأغلاطهـا التـي وصفـا لنا (17) مزعجـة كـثرة كـادت تصدّهمـا عن نشر « الاقتراح... » . والادب العربـي مدين لهما بفَضل جزيـل لان عبقريّة علي الحصري لم تـكـن لتظهر لو لم ينشر له « اقتراح القـريـح... » ثم إنهما اجتهدا فشـكـلا الشعـر شـكـلا صحيحا في جملته (18) على أنّ القارىء يودّ لو كان وصفهما للمخطوطة أكمل فهما لم يشيرا في هذا الوصف الى وجود شروح وتعليق وحواش وإصلاحات في المخطوطة بينما يُستنتج ذلك او بعضه من تعليقاتهما في غضـون الـكـتاب على بعض أبيات ويسندان ذلك الى من يسمّيانه « النـاسخ » . فهـل هو من عمـل الناسخ أم غيره ؟ — وقد يبيّن ذلك اختلاف الخط او الحبر مثلا — إذ النـاسخ اذا غيّر فهو عادة يبدل النصّ لا يزيد عليه في حاشيته . ومهما يـكـن فهـو

(16) فمـن ذلـك : ص 220 حـاشيـة 6 — ص 221 ح 4 و 7 — ص 223 ح 1 ص 224 ح 3 — ص 225 ح 4 — ص 230 ح 8 — ص 232 ح 1 — ص 234 ح 1 و 5 و 10 .

(17) انظر ص ص 252 — 253 .

(18) سننشر فى نهاية هذا البحث ما بدا لنـا من ملاحظات واصلاح اغـلاط فى تحقيق النص

مشكـل لو اهتمّا به لعلم القارىء ماهية الزيادات وكثرتها وقيمتها ولتبيّن بوضوح ما أتى به الناشران من إصلاح للنص وشرح لالفاظه ومعانيه وما كان من ذلك بالاصل المعتمد .

وعندما يصف الناشران « ديوان » اقتراح القريح واجتراح الجريح فانّهما يقسمانه الى ثلاثة أقسام (19) ويعتبران القسم الاول ثلاث مقدّمات (للحصري) والثاني « الديوان الاصلي » والثالث « الذيل » .

والحقيقة ان « اقتراح القريح... » زيادة على مقدّماته الثلاث يحتوي على قسم من النثر وقسم من الشعر . أمّا الشعر فينقسم الى القسمين الذين سمّاهما الناشران « الديوان الاصلي » و « الذيل » . وأما النثر فهو القسم الذي يبتدىء من أعلى ص 266 وينتهي بانتهاء ص 272 وهو في الزهد والوعظ وقد ظنّه الناشران — خطأ — جزءا من المقدمة الثالثة . ولهذا السبب فلا تصح تسمية « ديوان » اقتراح القريح... بل ينبغي ان يسمى **كتاب** اقتراح القريح... كما سمّاه الحصري وقد أشار الى أنه **نثر وشعر** لا شعر فقط فقال (20) : « **نثرت** شاكيا ما اجترحته الى فاطري **ونظمت** باكيا ما اقترحت على خاطري وقلت عسى الله يرحم **الناظم والناثر** فيسلي المحزون ويقيل العاثر وسميت هذا **الكتاب** « اقراح القريح واجتراح الجريح » وضمنته قصائد (...) ومقطعات (...) ونظمت من فصول **المنثور** مقطعات في الزهد المأثور... » والقطعة حقا — كما أشرنا — زهد كلّها ووعظ ورجوع الى الله وصبر جميل وأمل في قبول التوب وجزيل الثواب على جليل المصاب .

(19) انظر ص ص 253 — 255 .

(20) ص 264 .

والتنبّه الى القسم المنثور من هذا الكتاب يكتسي قيمة ذات شأن عندما نفكّر في ما أشرنا إليه من تلف رسائل علي الحصري فيبقى هذا القسم النموذج الاوحد من نثر صاحبنا (21) .

وقسم الاشعار فيه مادّة غزيرة لمعرفة حياة الحصري أبلى الناشران بلاء حسنا في تحليلها واستخراج جلّ ما يمكن معرفته من أخبار الشاعر ونسبه والكوارث التي نزلت به .

تعرّضا الى قرابة علي الحصري بابراهيم الحصري ولم يبتّا في صلتهما أهو ابن خالة ابراهيم أم ابن أخته . وقد ذهبنا في غير هذا البحث الى ترجيح النسب الثاني ولعلّ في بعض أبيات علي الحصري ما يثبت أنّ إبراهيم خاله : ففي ميميّة « اقتراح القريح... » بعد أن ذكر اباه وابنه في قوله (22) :

عبد الغنيِّ أبي وابني فقدتهما
فضامني الدهر حتى ارتعت بالضّام (23)

كانا هما حرماي الآمنان...

يقول علي الحصري :

فكان ذا عوضا عن ذاك فيه بقي وفيه (24) مفخر أخوالي وأعمامي

(21) حجم هذه القطعة النثرية اقل من الشعر ونسبتها اليه جزء من اثنى عشر جزءا تقريبا (1/12) باعتبار عدد الفاظهما .

(22) ص 367 .

(23) الضام بالضاد لا بالظاء وقد يكون لغة فى الضيم او هو الجنس من الضامة اى الحاجة .

(24) كذا نصلح البيت لان المعنى لا يستقيم بابقاء « وفيك » في بداية العجز .

أي انّ ابنه (ذا) كان عوضا عن أبيه (ذاك) المتوفّـى بالقيروان قبل خرابها ففـي ابنه بقاء بعد موت أبيه وفي ابنه مفخر أخوال الشاعر وأعمامه . فـكـيـف يفتخر أخوال علي الحصري بابنه عبد الغنـي إن لم يـكـونوا مثله من فهر ومن آ ل الحصري ؟ فاشتراك أعمامه وأخواله في الافتخار بابنه لا يـكـون إلا بالاشتراك في النسب . فأخواله كـأعمامه من آ ل الحصري أي انّ أمّ عليّ الحصري حصريّة هـي الاخرى ممّا قد يرجّح الرواية القائلة بأن إبراهيم خاله .

وبتحليل شعر الحصري يصل الناشران الى تحديد مضبوط لتاريـخ وفـاة ابنه عبد الغنـيّ وبذلك يـكـون تحديد بداية تأليف أشعار « اقتراح القريـح »(25)

وبيّن انّ الطفل مات في شهر آب (أوت) ولا يبعد أن يـكـون ذلك سنـة 475 او 476 ولـكـنّنا لا نقبل تحديد الناشرين ليوم الوفـاة من أنّه يوم الجمعة وأن دفنه كان يوم السبت يوم عيد الاضحى . لقد أردنا التثبّت من هذا الاستنتاج عند قراءة بحثهما فقابلنا بين التاريـخ الهجري القمري والتاريـخ الشمسـي وإذا بشهر ذي الحجّة من سنة 475 يوافق شهر نيسان (أفريل) لا شهر آب وهو في سنة 476 يوافق شهر آذار (مارس) . فعندها رجعنا الى النصّ الذي استنبطا منـه هذه النتيجة فاذا به لا يفيد البتّة ما ذهبا إليه .

يقول الناشران (26) : « ... يحدّد لنا (الحصري) اليوم (يوم وفاة ابنـه) بأنّه يوم الجمعة مساء ووقع الدفن يوم السبت فيقول :

يتنفّس الصعـداء يـوم خميسـه همّـا لـذلك همـة السعـداء

وكـأنـه يـوم العَروبة مـوثـق أسرا ويـوم السبت يوم فـداء

(25) انظر ص ص 244 — 245 .

(26) ص 244 .

فزيادة على كون تأويلهما لقول الحصري تأويل غريب بعيد فالبيتان لا علاقة لهما بوفاة الطفل . إنما يَصف الحصري في هذين البيتين وفي الابيات السابقة والتالية لهما شغف ابنه بالدراسة ومواضبته عليها فمن ذلك كان يحزن يوم الخميس لوشوك حلول العطلة الاسبوعيّة بالكتّاب ويرى أنّه « كأنّه — يوم العروبة » اي يوم الجمعة — « موثق أسرا » لتعذّر الذهاب الى الكتّاب إذ هو يوم الرّاحة الاسبوعية بينما « يوم السبت » وهو يوم الرجوع الى الكتاب بعد انتهاء العطلة « يوم الفداء » أي الخلاص من الاسر الذي كان يرى نفسه فيه بتعذّر ذهابه الى الكتّاب .

أمّا قول الحصري :

فلو لم يكن يوم العروبة دمته كما هدمني الاصل واستأصل الفرعا

فلا يستحيل أن يدلّ على وفاة ابنه يوم الجمعة على أن معنى البيت غامض لا يفيد اليقين . لكن الابيات التي استنتج منها الناشران ان الدفن كان يوم عيد الاضحى (27) فلا نرى فيها ما يفيد ذلك . إنما هي تعبير عن أسى الشاعر يوم فرح الناس بالعيد وقد كرّر الحصري — والمهلهل من قبله والخنساء والمتنبي وغيرهم من الشعراء — أنّ ذلك اليوم تذكو فيه حرقة من ودّع لذّات الحياة والحصري الشاعر لا يفوته شبه نحر الاضاحي بالرّعاف المستمرّ الذي أودى بولده . كلُّ ذلك يهيّج الاحزان ففضّل « سدّ بابه (...) ثلاثة خوف البكا

(27) يقول الناشران ص 245 : « ومن الصدف ان يكون يوم دفنه هو يوم عيد الاضحى . يقول الحصرى .

بالله يا عيدا تبسم للورى لا تلقنى الا وانت عبوس
هل عادة المشتاق لليلة عيده وصباحه الا بكى ورسيس
دمى المحل وما نحرت وانما انسان عينى في دمى مغموس
وسددت بابى عن عداى ثلاثة خوف البكى والشامتون جلوس

والشامتون جلوس » والايّام الثلاثة هـي أيّام العيد والفرح والتهانـي — عند غيـر الشـاكـل من النـاس .

وكما أننا قصدنا من هذه الملاحظات الى إتمام الفائدة الناتجة عن بحـث الناشرين — وهـي ذات شأن — فقد رأينا وجوب التعرّض الى « الديوان » ذاتـه لاعتقادنا أنّه — رغم تلف الـكـثيـر منه — آية من آيـات الشعـر العربـيّ بل والشعر البشري على الإطـلاق .

لقد أبرز النّاشران هذا الديوان في طبعة أنيقة (28) وحرصا على توضيـح نصّه بالتحقيق الموفّق أكـثر الاحيان والتعليقات القيّمة ولم يقتصدا في شـكـل الابيات على أنهما أهملا ذكـر بحور الشعر وهو ما لا يتم بدونه نشر علمـيّ لديوان من الدواوين . ومن مطالعة الـكـتـاب استوقفتنا ابيات وفقرات من تـراث الحصري قد لا نتّفق مع النـاشرين في تحقيقهـا او شـكـل بعض ألفـاظها او تأويلهـا فرأينـا نشر بعض ملاحظـات لنا فيمـا يـلي عسى ان يـكـون في ذلك فـائـدة (29) :

ص 129 ب 9 : سقـى الله عنّـا

ص 143 (وغيرها) : يـا ليـلَ الصّـبِّ

(28) يجب شكر « مطبعة المنـار » على مجهودها وقد تبـين من هذا الكتاب ان النشر بتونس ونشر الشعر خاصة صـار امرا مرضيا . ووددنـا لو ان الناشرين وضعا للابيات (والاسطر ايضا) اعدادا رتبية يسهل بها البحث وهو كذلك من شروط نشر الشعر .

(29) يشير حرف الصـاد (ص) الى الصحيفـة . والبـاء (ب) الى عدد البيت الرتبى بها . والسين (س) الى عدد السطر .

ص 234 ب 6ـ: لِمَاءِ فَمِ المَحْبُوبِ أَوْ وَرْدِ خَدِّهِ ـ مدَى أمَلِـي
(مبتدأ مؤخّر) لَوْ تَمَّ لِـي مَا أُؤَمِّلُ

وبهـذا يظهر الجناس : مَاءِ... مَا أُ...

ص 259 س 4 : لعلهـا العـدن اي الإقـامة .

ص 261 س 2 : فعَلَّكَ اي فلَعَلَّكَ (وتُفِيقُ بمعنى تَصِحُّ) .

ص 261 س 3 : فـلا تَسَلْ اي لا تَسْأَلْ .

ص 263 س 4 قبل الاخير : ومَنْ كَـانَ (عوض : ومن كـأنه) .

ص 267 س 4 : « إِضْ » الامرمن آض يئيض = عاد ورجـع ؛ و« محلال »
يقال ارض محلال اي سهلة ليّنة وروضة محلال : يـكـثـر
الناس الحلول بها . فيصير المعنـى : عُدْ أو صِرْ كأرض
سهلة للنـاس يطـؤونهـا .

ص 287 ب 1 : السكـن هنا ليس النار بل يعنـي به الشاعر ابنه والعجز يثبـت
هذا المعنى . وفي اللسان : « السكـن كـلُّ ما سكـنت اليه
واطمأننت بـه » . وقال علي بن ابي علي الناسخ ـ وهو
من شعـراء الأنمـوذج لابن رشيـق ـ يذكر ابنـه وقـد
فارقـه الى مصر :

أرض بها سكن لي قد كلفت به
وخير سكناي أرض حلّهاسكني

ص 289 ب 7 : فـرحـت **منهـا** .

ص 296 ب 1 : ذَوَى رَيْحَانِــيَ الاَرِجُ (وليس التعليق بشــيء) .

ص 302 ب 5 : رواية الاصل « نَطيـح » أولى بالمعنى ممّا ذهب اليه النـاشـران ويثبت ذلك العجز . يقول : « ناطح الشاة التـي لاقرون لها يظهر بالغ النطح » ونطيـح الثانية فعيل للمبالغة .

ص 302 ب 7 : وتَنسى... نُبوح (آخر البيت) والمعنى واضح : « بينما نشتغـل نحن بشكـر الله تنسى أنت شكـر الله (فيشغلك عنه الزمر وهو المدائح واللّهو) حتى يـردعك (أيهـا الزمّار) النبـوح (وهـي الجماعة الكثيرة من الناس) » والمخاطب في هـذه الابيات كـلّها هو الشاعر يلومه القوم . وإيّاهم يعنـي بقوله في البيت التاسع : « فقد صدقوا... » .

ص 304 ب 2 : فَيَسْعَدَ ذَا الشَّقِــيُّ بِمَـا تَمَنَّى . ويَحْسُنَ...

ص 309 ب 1 : رواية الاصل صحيحة : عَاضَ بمعنى عَوَّضَ . وهو يعنـي أن ابنه كان قد عوَّض عن فقد وطنه (انظر ما سبق مـــن الابيات) والمعنى يرد كثيرا في شعر الحصري .

ص 311 ب 1 : تحذف الواو من أوّل العجز : « كـنت... » .

ص 314 ب 6 : وتَقَـذَى إذا ما أُقْذِيَتْ...

ص 345 ب 3 : المعنى واضح : « هيهات » فاعل « تكـذّب » و « دعوى » مفعـول به و « عسى » مضاف اليه .

ص 375 ب 9 : « أبـان » اسم جبـل .

ص 375 ب 13 : « يُنَشَّرُ » و « يَشِي » والفاعل فيهما ضمير يعود على عبد الغني . والبيت بيان للبيت السابق .

ص 378 ب 13 : « في ابني » .

ص 379 ب 4 : « وجاز جَزَاءُ... » .

ص 385 ب 9 : لعل البيت يُقرأ هكذا :

قَدْ كَانَ إِنْ غَدَرَ العَدَا يَفُ دِينَهُ وَيَقِينَهُ

والبيت التالي جواب الشرط . وقد يعني بالعدائف الجماعة الكثيرة من الناس .

ص 388 ب 11 : بل القصد : العرب كلّها من أدناها الى أقصاها . ولا دخل لغير العرب من الاجناس .

ص 390 ب 1 : لعلّ الكلمة الاخيرة من البيت هي : « بأوقصا » وقد يدلّ عليها عجز البيت الثالث من الصحيفة التالية (ص 391) في معناه وألفاظه .

ص 414 ب 11 : لعلّ « الحدقة » الجماعة و « حَدَقَ » بمعنى فتح عينيه إشارة الى صغر سنّه او إلى مرضه الذي مات به دون أن يفيق منه .

ص 421 ب 3 : وصَبَاحَهُ .

ص 471 ب 6 : **ظَنِّي** — وأنت الشفيع — **أنّي** .

ش. بو يحيى

ديـوان ابن شهيـد الانـدلسى

عنى بجمعـه شـارل بـلا Charles Pellat
استاذ بالسربون ـ ط . دار المكشوف
بيروت سنة 1963 (ص ص 162 متوسط)

منذ أن انتشرت بين الناس رسالة التوابـع والزوابـع لابن شهيد بعد ظهـور ذخيرة ابن بسّام سنة 1939 (قسم 1 جزء 1) وطبـع الرسالة سنة 1951 على حـدة علم الناس ما لابن شهيد من الاعتزاز بشعره . فما رسالة التوابـع والزوابـع إلاّ تمجيد لا حدّ له لما أوتـي صاحبها ـ أو ما قد يـكـون اوتـي إذ هو الذي يزعم ـ من نبوغ وإبداع في ميدان القريض . وأشهد على ذلك فحول الجاهليّة والإسلام فشهدوا له بالتقدّم . فلا غرو أن يتشوّق قرّاء العربيّة الى الوقوف على هذا الشعر او ما بقـي منه بين جنبات كـتب الادب والمجموعات المختلفة .

وها هو ذا « الديوان » يبرز في حلّة أنيقة اعتنى بجمعه وتحقيقه وشرحـه الاستاذ ش . بلاّ بما عرف به من العمل الجدّيّ المتواصل لبعث التراث العربـيّ القديم . فقد جمع من شتّى المصادر المطبوعة والمخطوطة ـ وأهمّها الذخيرة لابن بسّام واليتيمة للثعالبـي ـ ما حُفظ لنا من شعر ابن شهيد ورتّبه على حـروف المعجم حسب القوا في وصدّر كـلّ قصيدة او قطعة بما عثر عليه او ما استنبطه

من تعريف بها وظروف نظمها وغرضها . ويتبـع القطعة ذكـر مصادرها واختلاف الروايات فيهـا وشرح ما غمض منهـا .

وتوطئة الناشر على اختصارهـا ــ لان حياة ابن شهيد وأدبه سبق أن درسهما بطرس البستانـي عندما نشر رسالة التوابـع والزوابـع ــ تثير مشاكـل خطيرة حول حياة ابن شهيد وتاريـخ تأليفه رسالة التوابـع والزوابـع وتضمينه إيّاها شيئا مـن شعره قاله بعد هذا التاريـخ . وإنّـنا لننتظر بفارغ صبر البحث الذي نعلم أن الاستاذ ش . بـلاّ ينوي القيام به لدرس هذه المشاكـل وغيرها في شأن ابن شهيد.

والملاحظ أن هذا لعلّه أوّل جمـع لديوان ابن شهيد (انظر ص 10) وهـو يحتوي على الابيات المتفرّقة كما يحتوي على النتف والقصائد (أطولها عدد 63 تضمّ 89 بيتـا) في شتّى أغراض الشعر العربـي التقليدي .

ولا يسعنا إلا ضمّ صوتنـا الى صوت بطرس البستانـي عندما يختم مقدمتـه للديوان قائلا (ص 8) : « ويستحـق ابن شهيد بعدما نُشِر ديوانه ان يُـدرس دراسة دقيقة مشبعة ليأخذ مكـانه بين شعراء الاندلس » . أمّا الناشر فانّـه أعرض عن هذا (ص ص 13 ــ 14) وأحال القارىء على ما استحسنه القدماء من شعـر ابـن شهيـد .

ويبدو لنا أن دراسة شعر ابن شهيد تتأكّد بظهور « ديوانه » لما ظهر لنا ــ بعد مجرّد مطالعة أشعاره دون ما تعمّق ــ من بون كـبير بين ادّعاء صاحب رسالة التوابـع والزوابـع في افتخاره بشعره وبين حقيقة هذا الشعر وقيمته وهـي في نظرنا وسط لا تنمّ على نبوغ وعبقريّة مفرطة ولا تشفّ على ما نعلمه لابن شهيد من حياة خلاعة ولهو ومجون . فأين في شعره شبـح « فتى الطوائف » بل أيـن

أصداء حياة « خليـع قرطبة » ؟ فهل أن القـول الفصل في ذلك ما وصفه به ابـن بسّـام عندما قال (ص 7 من مقدمـة الديوان) : « ابو عامر بن شهيد... أعجـب النـاس تفاوتا ما بين قوله وفعله » ؟

ش. بو يحيى

1. Vincent MONTEIL
Anthologie Bilingue de la Littérature Arabe Contemporaine
1 Vol, X L III + 267 p, Beyrouth. Imprimerie Catholique, mai 1961.

2. Raoul et Laura MAKARIUS
Anthologie de la Littérature Arabe Contemporaine
(Le Roman et la nouvelle) préface de J. Berque 1 vol. 409 p.
Paris. Ed. du Seuil, 1964

مجموعتا منتخبات من الادب العربى المعاصر

أخذ المهتمون بالادب العربي المعاصر يعتنون في هذه السنين الاخيرة بترجمة مختارات من آثار الادباء العرب إلى اللغات الاجنبيّة عامة والفرنسية خاصّة .

من ذلك أنه صدر في سنة 1961 مجموعة مختارات من الادب العربي المعاصر ، ترجمها إلى الفرنسية ونشرها مرفوقه بالنص العربي المستشرق « فانسان مونتاي » . (V. Monteil) .

وقدم صاحب المجموعة نفسه لمختاراته بمقدمة أشار فيها إلى تيارات الادب العربي الحديث مقتبسة من المحاضرات التي تنظمها الندوة اللبنانية وتنشرها بادارة الاستاذ ميشال أسمر .

ثم تلي مختارات من أدب العرب في المشرق والمغرب ، لادباء من لبنـان والعراق ومصر وسوريا وتونس والمغرب الاقصى ، في القصة بمختلف اتجاهاتها ، والترجمة الذاتية ، والخاطرة ، والمحاولة الادبيّـة .

ولقد نجح المؤلف في انتقاء نصوص هامة لادباء مشهورين . ولئن كان من العسير أن نطالبه بتقديـم مختارات لجميـع الادبـاء العرب ، فنحن نلاحـظ أنه أهمل مثلا أن يشير — إلى الادب المهجري — وهو الذي يمثل نزعة مخصوصة في الادب العربـي قوامها التحرر من التقليد في المعنى والاسلوب والاغراض . وهو لم ينتخب من الادب التونسـي سوى صفحات من السد لمحمود المسعدي ، معرضا عن الانتاج القصصـي الغزير الذي نشر في مجلات تونسية عديدة ما بين الحربين العالميتين وبعدهما ، وخصوصا بعد الاستقلال سنة 1956 .

ثم إنك — بعد أن تفرغ من النظر في هذه المجموعة المنتخبة — يخيب ظنك إذ أنك كـنت تنتظر أن تلقى مختارات لا من القصـة والترجمـة الذاتيـة فحسب ، بل من المسرح (إن نحن استثنينا رواية السّد) والشعر أيضا...

فلعله من العدل أن يـكـو ن عنوان الـكـتاب : مجموعة مختارات من الادب القصصـي الحديث عند العـرب .

وعلى كـلٍّ فهو كـتاب جدير بالعنـاية ، إذ هو يعرف بالادب العربـي الجديد ، ويعين على نشره خصوصا بين الجمـاهير الاوروبيّـة التـي لا تحسن اللسان الفرنسـي : وهو أمرٌ بلا شك عظيم !

وصدر كـذلك كـتاب ثانٍ من هذا القبيل ، ضم مجموعة مختارات من القصة والرواية (القصصية) ، اعتنى بجمعها وتقديمها مترجمة إلى الفرنسيّة رَاوول ولورَا ماكاريوس (R. et L. Makarius) .

ولقد قدّم لهذا الكتاب المستشرق جاك بارك (J. Berque) تقديما مُفيداً عرّف فيه بأسس الادب العربي المعاصر واهمّ اتجاهاته ومدى ما قطعه من خطوات إيجابيّة ، وأهمّ مشاكله وآمال اصحابه .

ثم تأتي خطبة الكتاب — كتبها راوول مكاريوس — مبيّنا فيها قصده من نشره هذه المنتخبات المترجمة من الادب العربي إلى اللسان الفرنسي ، مشيرا إلى أنها قد تعبّر تعبيرا صادقا عن « هذا المجتمع العربي الحديث ، المتطوّر بما درَج إليه من هزّات فكريّة ، وانقلابات سياسيّة وتغيّرات في نمط العيش » ويتخلص المنتخب بعد ذلك إلى ضبط الخطوط الكبرى لتطور الادب العربي الجديد ، منذ بداية النهضة الحديثة ، ضبطا قد يبدو للحاذق عامّا سطحيا ، ولكنّه قد يفيد الريّض المتعرف خصوصا إذا كان من غير اصحاب اللسان العربي .

وفي نهاية خطبة الكتاب يلحّ المؤلف في التذكير بما يجده كل منتخب من عُسر في الاختيار ، ويشير إلى أنه لا مناص من وجوب إغفال كتاب — قد يكونون هامين — ومن إهمال إثبات نصوص قد تكون ممتازة ، إذ ليس من الامكان الانتخاب لكل كاتب .

ثم تجد نفسك مع جوهر هذا الكتاب ، وهو يحتوي على أقسام ثلاثة :

1) الروّاد — وهو قسم فيه منتخبات لمن أقدموا قبل غيرهم على ممارسة القصة .

2) النهضة الثانية — ويعني بها المؤلف المرحلة الثانية من نهضة الادب الحديثة ، أي الانتاج القصصي ما بعد الحرب العالمية الثانية ، طيلة عشرين سنة تقريبا .

3) الاتجاهات المبتكـرة – وهو قسم يحوي نصوصا لـكتاب تميّـزوا بأسلوب عربـي خاص بهم ، معرضين عن القوالب التقليديّة من حيث هيكـل القصة وطـرُق التعبيـر .

وهـكـذا تمر – من خلال المنتخبات – بالقصة في لبنان وسوريا والعـراق وفلسطين ومصر والسودان وتونس والجزائر والمغرب الاقصى ، فتحمدُ هذه الـرحلة التي تطلعك على نُتَفٍ من الادب العربـي المعاصر في لغة فرنسيّة رشيقة العبارة طليـة الاسلـوب أحيـانا .

ولئن كانت الترجمة الفرنسية توحـي بعظيم المجهود الذي بذله الناقل (أو الناقلان ؟) فهـي لم تسلم من أخطاء عديدة ، محرجة أحيانا ، ناشئة عن قلـة التثبت في النص العربـي ، أو قلة البحث والتروّي ! من ذلك أنّ الناقل تـرجـم كـلمة « الـكيروانات » في النصّ الذي اختارهُ من قصة علي الدوعاجـي (أمن تذكـر جيران بذي سلم) بـ « المرطبات القيروانية » (Les Gâteaux de Kairouan !؟) في حين أنّ معناها – كما هو معلـوم – تلك الصحاف النحاسية المنتشرة ، منذ القديم ، في البـلاد التونسيـة .

والناظر في هذه المجموعة يتساءل لم لمْ يضبط الناشر – في خصوص كـل نصّ مختـار – طبعـة المصـدر الذي اقتبـس منـه النص ، ومـكـان الطبـع ، والصفحة ، كي يسهل عليه إن هو رام ذلك – وكـثيرا ما يـكون ! – الرجوع إلى النص العربـي قصد التثبت أو مواصلة قراءة القصة .

واكـثر من ذلك ! فانك قد تبحث عن بعض القصص التـي نقلها الناقل ، فيعسر عليك البحث وقـد يستحيـل ، إلا إذا كـنت محيطـا من قبل بما تقـرؤه

مترجما . فاذا ما أردت أن تبحث عن نص « أم تمام » مثلا لطه حسين ، عسر عليك ذلك ؟ خصوصا أنه لا توجد قصة لطه حسين عنوانها « أم تمام » ، ولكنه توجد قصة عنوانها « المعتزلة » في كتاب (المعذبون في الارض) بطلتها « أم تمام »... وهذا ، في نظرنا ، لا يستحسن في مجموعة كهذه المجموعة تبدو عليها الجدّيّة .

هذا ومما يلاحظ أن حظ تونس ضئيل في هذه المنتخبات ، لا من حيث الكم فحسب (باعتبار ما صدر من إنتاج قصصي في تونس يستحق الاعتبار) بل خصوصا من حيث الكيف . إذ كان من الامكان انتخاب قصص أخرى من أحسن ما نشر في مجلة المباحث والفكر وغيرهما من المجلات التي أغفلت إغفالا قد يوقع الباحث والمتعرف في إبداء أحكام منقوصة أو خاطئة !

وعلى كل ، فانّ هذه المخْتارات تعين على بث الادب العربي المعاصر بين جمهور القراء الاوروبيين عامّة والفرنسيين خاصّة ، وتعمل على تعريف أدبنا وبالتالي إنزاله منزلته الحق في الانتاج الفكري العالمي .

م. الشملي

الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها

تــاليــف أبى الحســن أحمــد بن فارس
حققــه وقــدم لــه : مصطفى الشــويبى
(388 صفحــة . بــيــروت 1964/1383)

أُعيد أخيرا نشر كتاب الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها الذي ألّفه احد مشاهير اللغويين في القرن الرابع الهجري ابو الحسن احمد بن فارس (المتوفي سنة 1004/395) وقد حقق الكتاب وقدم له مصطفى الشويمي وهو اول منشور من منشورات سلسلة عنوانها المكتبة اللغوية العربية يشرف عليها الاستاذان ريجيس بلاشير وجبور عبد النور .

ومن الملاحظ ان هذا الكتاب قد نشرته المكتبة السلفية بالقاهرة سنة 1328/1910 ولئن كان لهذه النشرة الاولى مزية التعريف بهذا الكتاب فانها لم تكن علمية ولم يتوفر فيها ما يحتاج اليه كتاب مثل هذا من ضبط ودقة .

ولذا كانت النشرة الثانية هامّة جدا خاصّة ان كتاب الصاحبي في فقه اللغة يحتل مكانة مرموقة بين كتب فقه اللغة العربية فهو من اقدم تلك المؤلفات حاول مؤلفه ان يجمع فيه الميزات التي يعتبرها خاصّة بالعربية من حيث اصل

هذه اللغة واصواتها وحروفها وتراكيبها وتعابيرها وعمل ابن فارس هذا شبيه بعمل ابن جني من حيث هو يتناول دراسة خصائص العربية ولكنه يختلف عن كتب ابن جني من ناحيتين اثنتين فكتاب الصاحبي هذا شديد الاختصار قليل التعمق فهو كما قال الشويمي اثناء تقديمه له « في متناول الجميع بل ينبغي ان يكون من كتب الثقافة اللغوية العامة » بينما كتب ابن جني فهي « لا ينهض لها الا المتخصص الطويل الباع في اللغة والصرف والقياس والعلل... » .

اما الناحية الثانية فتتمثل في موقف ابن فارس ازاء مشاكل اللغة فهو موقف لغوي محافظ خلافا لابن جني ومن هنا يمكن ان يعتبر كتاب الصاحبي ممثلا لنزعة لغوية معيّنة وهو من هذه الناحية ايضا هام جدا .

وقد كانت النشرة التي قام بها مصطفى الشويمي محكمة تامّة الضبط تتجلى صبغتها العلمية في اعتماد الناشر على مخطوطين احدهما وهو مخطوط جامع بايزيد باستامبول يرجع الى عصر ابن فارس اذ كتب سنة 382 وتضمن « توقيع المؤلف في مواضع كثيرة » .

ثم ان الناشر اضاف الى النص حواشي عديدة فيها التعريف بالاشخاص المذكورين في الكتاب وضبط المراجع التي أخذت منها الشواهد والتنبيه إلى الفقرات التي نقلتها كتب اللغة عن ابن فارس وتفسير عدد من الالفاظ الغامضة ومن المصطلحات .

وقد شفع النصّ بقائمة المراجع التي استعملت لتحقيقه وضبط حواشيه كما اتبع بفهارس لا يقل عددها عن الثمانية خصصت للقوافي واجزاء الابيات

والآيات والقراءات والاحاديـث النبـويـة والامثـال والاقـوال المـأثـورة والالفـاظ الاساسية ذات الاهميـة اللغـوية والاصطلاحـات والاعـلام والقبـائـل والـكـتب والمـواضـــع .

وهـكـذا يصبـح كـتاب الصاحبـي ميسور الاستعمال بفضل مامتازت به هذه النشرة من تحرٍّ ودقّة وما تضمّنت من معلومات اضافية توضح النص وتزيل غوامضه واخيرا بفضل اناقة الطبـع ووضوحه .

ع . المهيري

كتــاب كشف الغطــاء عن حقــائــق التوحيــد

تــاليف الحســن بن الاهــذل اليمــنى
نشــر الــدكتور احمــد بكيــر
(328 صفحــة ـ تونس 1964)

ظهر اخيرا بتونس كـتاب « كشف الغطاء عن حقائق التوحيد والرد على ابن عربـي الفيلسوف المتصوف » وهـو من تاليف الحسين بن الاهـذل اليمنـي (المتوفي سنة 1480/855) وقد قام بنشره الدكـتور احمد بـكير بالاعتماد عـلى مخطوط يوجد بمكـتبة المخطوطات في الجامعة التونسية ولم يستعمل الناشر نسخا اخرى قال انه يعـرف انها موجـودة ببرليـن واستنبـول ودمشق بـدون أن يأتـي بالتدقيقات التـي تساعد على التثبت من ذلك .

ولا شك ان الاقتصار على نسخـة واحدة من شـأنه ان يثيـر امام المحقـق مشا كـل عدة راجعة الى رداءة الخط أو إلى ما بالمخطوط المعتمد من خروم ونقص وفعلا فلقد تجلى اثر ذلك في اماكـن كـثيرة من الـكـتاب اذ ان كـل كـلمة لم تتسن قراءتها اشير اليها ببياض في النص فـكـانت هذه الاشارات عديدة وخاصّة في آخر الـكـتاب فـفـي صفحة 312 مثلا نجد هذا البياض في سبعة اماكـن وفي

ص 316 نجده في تسعة عشر مكانا... مما يجعل الاستفادة من النص المنشور تتضاءل بقدر ما يتكاثر النقص فيه .

ولقد اضيف الى النص حواشي فيها اشارات الى عدد من المصادر التي اقتبس المؤلف شواهده منها والى السور التي اقتبست منها الآيات القرآنية المذكورة كما تتضمن تعريفا مقتضبا بعدد من الاشخاص الوارد ذكرهم في الكتاب او اشارات الى المراجع التي تحتوي على معلومات متعلقة بهم ؛ ومن الجدير بالذكر ان هذه الاشارات لم توجد بصفة منتظمة الا بالنسبة الى الآيات القرآنية اما فيما يتعلق بالاشخاص فقد حظيت منهم اقليّة بعناية الناشر وأهمل الكثير وخاصّة ممن لم تكن لهم من الشهرة ما يغني عن التعريف بهم . ولم نتمكن من الاهتداء الى المقاييس التي جعلت الاستاذ بكير يعرّف ببعض الاعلام ويهمل الآخرين .

وقد اضاف الناشر الى النص مقدمة تتضمن تعريفا موجزا بالمؤلف وتقديما سريعا للمخطوط المعتمد وترجمة لابن عربي مع ذكر آثاره كما اتبع النص بفهرس للاعلام المذكورة في الكتاب ويلاحظ ان هذا الفهرس لا يخلو من عيوب كثيرة فبالاضافة الى ان الترتيب الهجائي لم يراع كل المراعاة (ص 324 وص 325) والى ان ارقام الصفحات المشار اليها لم ترتب ترتيبا تصاعديا فانه لم يتوفر في هذا الفهرست الاستقصاء المنشود ولم يضبط بطريقة تجعله متضمنا لكل الاسماء المذكورة في النص ولكل الصفحات التي ذكرت فيها تلك الاسماء وهكذا فانك مثلا تبحث عبثا في هذا الفهرست عن ابي عبد الله احمد بن عطاء الله الروذباري المذكور صفحة 53 كما انك لا تجد اية اشارة مثلا الى ان السهروردي ذكر في الصفحات 55 و56 و57 وان محي الدين النووي ذكر

ص 56 وص 254 وان القشيري ذكر ص 55 وان الشافعي والمازني ذكرا ص 156 الخ...

وقد كان ينبغي ان يخصص ايضا فهرس محكم الترتيب شاملا للكتب المذكورة في النص وفهرسا آخر للشعر الذي يتخلل النص...

اما النص فهو لم يخل من اخطاء كثيرة ليست كلها من قبيل الاخطاء المطبعية ولا هي راجعة الى الاعتماد على مخطوط واحد ونذكر منها على سبيل المثال عبارة دنياوية ص 2 ويحطاط ص 6 وادّعا ص 54...

ولعل الناشر محق عندما يعتبر ان هذه النشرة « خطوة اولى لتحقيق هذا المخطوط » ، فهو ما زال في حاجة الى مزيد من التحقيق والضبط .

ع . المهيري

ANNALES DE L'UNIVERSITE DE TUNIS

Directeur : Ahmed ABDESSELEM, Pro-Recteur de l'Université.

Abonnements : (pour un an) :

Tunisie, Afrique du Nord, France .... **0 D, 400**

Etranger .... **0 D, 500**

Prix du numéro simple .... **0 D, 400**

C. C. P. Univeristé de Tunis — Tunis 610-11

(Spécifier : **Annales de l'Université de Tunis**)

— Les opinions émises par les auteurs n'engagent pas la responsabilité de la revue.

— Toute la correspondance doit être adressée à :
« *Annales de l'Université de Tunis* », Université de Tunis, Boulevard du 9 Avril 1938 — Tunis.

Imprimerie Officielle — Tunis

المطبعة الرسمية - تونس